دار
الأشراف
الصوفية

(الآخرون يبحثون عن شكل الإسلام ونحن نبحث عن جوهره)
التصوف
هو النهج الذي لم يخرج من عباءته أي فكر تكفيري أو ترويعي

فى الرد على فكر التكفير عند المغالين

مختارات
من تراث السلف

إعداد

الأستاذ الدكتور
أحمد عبدالرحيم السايح

المستشار
توفيق علي وهبة

في الرد على فكر التكفير عند المخالفين

مختارات
من تراث السلف

إعداد

الأستاذ الدكتور
أحمد عبدالرحيم السايح

المستشار
توفيق علي وهبة

يوزع مجاناً

تبدأ دعوات الإصلاح بروح صوفية تدعو إلى تزكية

النفس وتطهيرها والتصدي للفساد والانحراف

وحينما تختلط بالدنيا وتبدأ الغنائم

لا يلبث القائمون عليها في استغلال الدعوة

لتبرير استئثارهم بالسلطة ونفيهم للآخر

وشعارهم هو من ليس معنا فهو علينا

وبالتالي فهو كافر ومشرك

ومستباح المال والعرض والدم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده ــ سبحانه وتعالى ــ حمدا كثيرا طيبا ونصلي ونسلم على الرسول الصادق الأمين محمد رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهذه (مختارات من تراث العلماء) رأى كثير من العلماء الباحثين أنها تشير في وضوح إلى رؤية علماء الأمة المخلصين في مواجهة الغزو الغنوصي، الذي يعمل على بلبلة الأفكار واضطراب الأمن والمجتمع .

وقد يكون واضحا أن عقائد المسلمين ــ كما جاءت في القرآن الكريم ــ واضحة وبينة. ولكن هؤلاء الغنوصيين أحدثوا شرخا كبيرا في مجتمعات الأمة بما شغلوا به الشباب والناس من أمور من شأنها أن تبعد الناس عن النهج المستقيم. فانصرف الناس عن العمل الجاد، والإنتاج المفيد للمجتمعات والإنسانية .

ويبدو واضحا، للمتأملين في حركة الحياة أن الفكر الإرهابي من أخطر الأفكار التي أضرت بالأمة الإسلامية والمجتمعات الإنسانية .

والفكر الإرهابي هذا، هو وليد طبيعي لأفكار غنوصية باطنية استطاعت أن تتسلل إلى المجتمعات باسم الإسلام والسنة والسلفية .

وإذا كان إبليس دخل مع أفراد من العرب في تآمرهم على الرسول ﷺ حين بعثته في صورة شيخ نجدي ، فإن هؤلاء الغنوصيين يدخلون المجتمعات في تآمر على المسلمين في صورة إسلامية، وشكل إسلامي .

ولذلك يرى أهل العلم أن التيارات الإرهابية التي زعزعت استقرار المجتمعات تحتاج إلى مواجهة تصحيحية، أي إبراز ما قاله علماء الأمة في تلك المسائل التي شغل بها هؤلاء الناس .

إن الأمة يجب أن تدرك أن ما جاء به هؤلاء الإرهابيون من إنكار التوسل، وزيارة القبور، وحب الصالحين، والأولياء، مخالف لكل مبادئ الإسلام وتعاليمه.

وعلماء الأمة الإسلامية قديما وحديثا، كانوا يحرصون على كل ما من شأنه إن يؤدي إلى تصحيح المفاهيم، وأمن المجتمع، حتى تظل المسيرة في طريقها الصحيح. ولذا رأينا أن نختار مختارات من تراث علماء الأمة الإسلامية لنقدمه إلى القارىء المسلم، ليتبين الطريق، ويدرك أن الغزو التكفيري والتبديعي الذي أصيبت به المجتمعات المختلفة من أخطر ما تواجهه الأمة في مسيرتها .

وإن الأمة التي تلتف حول قادتها وعلمائها لابد وأن تتقدم في مسيرة الحضارة، ومعالم العلاقات الإنسانية، ولابد أن تكون حريصة على القيم والثوابت التي جاءت بها تعاليم ومبادئ الإسلام .

وما نختاره ونقدمه للقارئ الكريم، هو نموذج من النماذج المختارة التي أخذناها عن سلف الأمة مثل الشيخ يوسف النبهاني والشيخ السيد أحمد دحلان مفتي الشافعية بمكة المكرمة وعدد من فقهاء وعلماء المذاهب الأربعة ممن صححوا المسيرة، ودافعوا عن الأمة .

نسأل الله التوفيق ..

إنه سميع قريب مجيب

أ . د / أحمد عبد الرحيم السايح　　　　المستشار/ توفيق علي وهبة

الفصل الأول
شواهد الحق
في الاستعانة بسيد الخلق

قال الإمام ابن حجر في الجوهر المنظم : من خرافات ابن تيمية التي لم يقلها عالم قبله وصار بها بين أهل الإسلام مثله، أنه أنكر الاستعانة والتوسل به صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك كما أفتى به، بل التوسل به حسن فى كل حال قبل خلقه وبعد خلقه فى الدنيا والآخرة. فما يدل لطلب التوسل به صلى الله عليه وسلم قبل خلقه وأن ذلك هو سير السلف الصالح الأنبياء والأولياء وغيرهم، فقول ابن تيمية ليس له أصل من افترائه: ما أخرجه الحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال: [ولما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسالك بحق محمد صلى الله عليه وسلم إلا ما غفرت لى . قال الله يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ . قال يا رب خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك. رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال له صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك] والمراد بحقه صلى الله عليه وسلم رتبته ومنزلته لديه تعالى، أو الحق الذي جعله الله سبحانه وتعالى له على الخلق، أو الحق الذي جعله الله تعالى بفضله له عليه كما فى الحديث الصحيح [قال فما حق العباد على الله] لا الواجب ؛ إذ لا يجب على الله تعالى شيء ، ثم السؤال به صلى الله عليه وسلم ليس سؤالا له حق يوجب اشتراكا، وإنما هو سؤال الله تعالى بمن له عنده قدر علي ومرتبة رفيعة وجاه عظيم. فمن كرامته صلى الله عليم وسلم على ربه أن لا يخيب السائل به والمتوسل إليه بجاهه، ويكفي فى هوان منكر ذلك حرمانه إياه. وفى حياته صلى الله عليه وسلم ما أخرجه النسائى والترمذى وصححه "أن رجلا ضريرا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أدع الله لى أن يعافينى، فقال إن شئت دعوت

وإن شئت صبرت وهو خير لك قال فادعه" وفى رواية [ليس لى قائد وقد شق عليّ] فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: [اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربى فى قضاء حاجتى لتقضي لي اللهم شفعه فِيّ] وصححه أيضاً البيهقي وزاد [فقام وقد أبصر].

وفى رواية "اللهم شفعه فيّ، وشفعني في نفسي" وإنما علمه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ولم يدع له لأنه أراد أن يحصل منه التوجه وبذل الافتقار والانكسار والاضطرار مستغيثاً به صلى الله عليه وسلم ليحصل له كمال مقصوده، وهذا المعنى حاصل في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم: ومن ثم استعمل السلف هذا الدعاء في حاجاتهم بعد موته صلى الله عليه وسلم، وقد علمه عثمان بن حنيف الصحابي رواية لمن كان له حاجة عند عثمان بن عفان زمن إمارته بعده صلى الله عليه وسلم وعسر عليه قضاؤها منه وفعله فقضاها، رواه الطبراني والبيهقى وروى الطبراني بسند جيد [أنه صلى الله عليه وسلم ذكر فى دعائه بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي] .

ولا فرق بين ذكر التوسل والاستعانة والتشفع والتوجه به صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء وكذا الأولياء ، وذلك لأنه ورد جواز التوسل بالأعمال كما فى حديث الغار الصحيح مع كونها أعراضاً فالذوات الفاضلة أولى، ولأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه توسل بالعباس رضى الله عنه فى الاستسقاء ولم ينكر عليه، وكأن حكمة توسله به دون النبى صلى الله عليه وسلم وقبره إظهار غاية التواضع لنفسه، والرفعة لقرابته صلى الله عليه وسلم ، ففى توسله بالعباس توسل بالنبى صلى الله عليه وسلم، وزيادة لا يقال لفظ التوجه والاستعانة يوهم أن المتوجه والمستغاث به أعلى من المتوجه والمستغاث إليه لأن التوجه من الجاه وهو علو المنزلة، وقد يتوسل بذى الجاه إلى من هو أعلى جاها منه، والاستعانة طلب الغوث والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره، وإن كان ذلك الغير أعلى منه، فالتوجه والاستعانة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى فى قلوب المسلمين غير ذلك ولا

يقصد بهما أحد منهم سواه. فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه، نسأل الله العافية، والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بينه وبين المستغيث فهو سبحانه مستغاث به والغوث منه خلقاً وإيجاداً، والنبي مستغاث والغوث منه سبباً وكسباً ومستغاث به مجازاً، وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث ولو سبباً وكسباً أمر معلوم لا شك فيه لغة وشرعاً فلا فرق بينه وبين السؤال، لا سيما مع ما نقل أن في حديث البخاري رحمة الله تعالى في الشفاعة يوم القيامة [فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم].

وقد يكون معنى التوسل به صلى الله عليه وسلم طلب الدعاء منه إذ هو حي يعلم سؤال من يسأله وقد صح في حديث طويل : [إن الناس أصابهم قحط في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه صلى الله عليه وسلم في النوم وأخبره أنهم يسقون فكان كذلك، وفيه ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم يسقون، وقل له: عليك الكيس الكيس : أي الرفق لأنه رضي الله عنه كان شديداً في دين الله فأتاه فأخبره فبكى، ثم قال يا رب ما آلو إلا لما عجزت عنه]. وفي رواية أن رائي المنام بلال بن الحارث المزني الصحابي رضي الله عنه .

فعلم أنه صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدعاء بحصول الحاجات كما في حياته لعلمه بسؤال من سأله كما ورد مع قدرته على التسبب في حصول ما سئل فيه بسؤاله وشفاعته صلى الله عليه وسلم إلى ربه عز وجل ، وأنه صلى الله عليه وسلم يتوسل به في كل خير قبل بروزه لهذا العالم وبعده في حياته وبعد وفاته.

وكذا في عرصات القيامة فيشفع إلى ربه، وهذا مما قام الإجماع عليه وتواترت به الأخبار . وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال [أوحى الله تعالى إلى عيسى صلوات الله على نبينا وعليه سلامه : يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت

الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله فسكن] فكيف لا يتشفع ويتوسل بمن له هذا الجاه الوسيع والقدر المنيع عند سيده ومولاه المنعم عليه بما حباه به وأولاه. انتهى كلام ابن حجر .

وقال الإمام السبكي بعد ذكر حديث آدم الذي فيه [أسألك بحق محمد لمـا غفرت لى] وقول الله تعالى له [وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمـد ما خلقتك] الحديث، هو حديث صحيح الإسناد رواه الحاكم . قال وذكر معه الحاكم حديث ابن عباس أوحى الله إلى عيسى .. الخ . وقـال الحـاكم هـذا حديث حسن صحيح الإسناد .

قال الإمام السبكي بعد ما ذكر ، وأما ما ورد من توسل نـوح وإبراهيـم وغيرهما من الأنبياء فذكره المفسرون واكتفينا عنـه بهـذا الحديـث لجودتـه وتصحيح الحاكم له، وعبارة ابن حجر السابقة وإن كانت كافية وافية فلا بـأس من ذكر بعض ما ذكره الإمام السبكي وإن تكرر بعضه مع ما تقدم عـن ابـن حجر رحمهم الله تعالى لأنه نقل كثيرا من عباراته وإن لم ينسب بعضها إليه .

قال الإمام السبكي : اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاسـتعانة والتشـفع بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحسـنه مـن الأمور المعلومة لكل ذى دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السـلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين، والتوسل بالنبى صلى الله عليه وسـلم جائز فى كل حال قبل خلقه وبعده فى مدة حياته فى الدنيا وبعد موته، فى مـدة البرزخ وبعد البعث، فى عرصات القيامة والجنة، وهو على ثلاثـة أنـواع : أن يتوسل به صلى الله عليه وسلم بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعـالى بـه أو بجاهه أو ببركته ، فيجوز ذلك فى الأحوال الثلاثة، وقد ورد فى كل منها خـبر، صحيح ، ولا فرق فى المعنى بين أن يعبر عنه بلفـظ التوسـل أو الاسـتعانة أو التشفع، والداعى بذلك متوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم. لأنه جعله وسـيلة لإجابة الله دعاءه، ومستغيث به صلى الله عليه وسلم لأنه استغاث الله تعالى بـه صلى الله عليه وسلم على ما يقصده ، ومستشفع به صلى الله عليه وسلم لأنـه سأل الله بجاهه صلى الله عليه وسلم.

والمقصود جواز أن يسأل العبد الله تعالى بمن يقطع أن له عند الله تعالى قدراً ومرتبة.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم له عند الله تعالى قدر عليّ ومرتبة رفيعة وجاه عظيم، وفي العادة أن من كان له عند الشخص قدر بحيث إنه إذا شفع عنده قبل شفاعته، فإذا انتسب إليه شخص في غيبته وتوسل بذلك يشفعه به وإن لم يكن حاضراً ولا شافعاً ويكون ذلك المحبوب أو العظيم سبباً للإجابة كما في الأدعية الصحيحة المأثورة [أسألك بكل اسم لك ، وأسألك بأسمائك الحسنى، وأسألك بأنك أنت الله ، وأعوذ برضاك من سخطك ، ومعافاتك من عقوبتك ، وبك منك] . وحديث الغار الذي فيه الدعاء بالأعمال الصالحة، وهو من الأحاديث الصحيحة المشهورة، فالمسئول في هذه الدعوات كلها هو الله وحده لا شريك له، والمسئول به مختلف، كذلك السؤال بالنبي صلى الله عليه وسلم ليس سؤالا للنبي[1]، بل سؤال لله تعالى به صلى الله عليه وسلم، وتارة يكون المسئول به أعلى من المسئول كما في قوله [من سألكم بالله فأعطوه] فالمسئول به هنا هو البارى سبحانه وتعالى، والمسئول هو بعض البشر.

وتارة يكون المسئول أعلى من المسئول به كما في سؤال الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه لا شك أن للنبي صلى الله عليه وسلم قدرا عنده تعالى ، فمن قال أسألك بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا شك في جوازه وكذا إذا قال بحق محمد، والمراد بالحق الرتبة والمنزلة ، والحق الذي جعله الله على الخلق ، أو الحق الذي جعله الله بفضله له عليه كما في الحديث الصحيح الذي قال فيه [فما حق العباد على الله] وليس المراد بالحق الواجب فإنه لا يجب على الله تعالى شيء، ثم ذكر أحاديث الشفاعة والتجاء الناس إلى الأنبياء .

قال : وفي التجاء الناس إلى الأنبياء في ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم في الدنيا والآخرة؛ وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه، وهذا لم ينكره أحد، ولا فرق بين أن يسمى ذلك تشفعا أو توسلا أو استغاثة.

---

(1) هذا تخريج لطيف لعل المشككين يفهمون المقصود. فالإجماع منعقد على أن الدعاء والسؤال لله وحده (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه) فالدعاء لله والإجابة منه سبحانه وتعالى .

ليس ذلك من باب تقرب المشركين على الله تعالى بعبادة غيره فـإن ذلـك كفر، والمسلمون إذا توسلوا بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بغيره مـن الأنبيـاء والصالحين لم يعبدوهم ولا أخرجهم ذلك عن توحيدهم لله تعالى وأنه هو المنفـرد بالنفع والضر، وإذا جاز ذلك جاز قول القائل : أسأل الله تعالى برسـوله لأنـه سائل لله تعالى لا لغيره، انتهت.

وقد جمعت ذلك من أماكن متفرقة من كتاب الإمام السبكى (شفاء السقام : فى زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام)، وهو مشهور مطبـوع مـن أراده فليراجعه. وقال السيد السمهودى فى خلاصة الوفا : ولا فرق فى ذلـك بـين التعبير بالتوسل أو الاستغاثة أو التوجه به صلى الله عليه وسلم فى الحاجة، وقـد يكون ذلك بمعنى طلب أن يدعو كما فى حال الحياة، إذ هو غير ممتنع مع علمـه بسؤال من يسأله صلى الله عليه وسلم، وتقدم مثله فى كلام ابن حجر .

فقد ظهر من هذا أن استغاثة المستغيثين به صلى الله عليه وسلم تجـئ علـى معنيين: أحدهما أن يسأل المستغيث الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بجاهه أو بحقه أو ببركته أن يقضى حاجته، فالمستغيث على هذا هو الـذي يدعـو الله تعالى ويجعل واسطة القبول عنده عز وجل نبيه الأعظم وحبيبه الأكرم صلـى الله عليه وسلم. والمعنى الثانى أن يسأل المستغيث النبى صلى الله عليه وسلم ليدعـو الله تعالى وليسأله قضاء حاجته لأنه حي فى قبره كما يسأله الناس الشفاعة يـوم القيامة فيشفع لهم، وكما سأله الناس فى حياته الدنيوية الدعاء بالاستسقاء وغيره فدعا لهم بالسقيا وغيرها فاستجاب الله له ، وجميع الاستغاثات الواقعة فى كتـابى هذا لا تخلو عن هذين المعنيين، ورأيت فى كتاب (جمـع الأسـرار : فى منـع الأشرار ، عن الطعن فى الصوفية الأخيار) لسيدى العارف بالله الشيخ عبد الغنى النابلسى رضى الله عنه ما نصه :

وسئل العلامة الشهاب الرملي الشافعي رحمه الله تعالى عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد. يا شيخ فلان ونحو ذلك. فأجاب بأن الاسـتعانة بالأنبيـاء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والأولياء والعلماء والصالحين جـائزة. قـال الشيخ عبد الغنى: يقول مصنف هذه الرسالة -يشير إليه- يعنى جواز التوسـل

والاستغاثة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[2].

قال الشيخ الرملي : وللرسل والأنبياء والأولياء إغاثة بعد موتهم، لأن معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء لا تنقطع بعد موتهم . أما الأنبياء فإنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار، فتكون الإغاثة منهم معجزة لهم، والشهداء أيضاً أحياء شوهدوا نهاراً جهاراً يقاتلون الكفار. وأما الأولياء فهي كرامة لهم، انتهى كلام الرملي.

وقد ذكر الشيخ عبد الغني بعدها فتوى من العلامة الإمام الشيخ عبد الحي الشرنبلالي الحنفي من جملتها قوله رحمه الله تعالى : وأما التوسل بالأنبياء والأولياء فجائز، إذ لا يشك في مسلم أنه يعتقد في سيدى أحمد أو غيره من الأولياء أن له إيجاد شيء من قضاء مصلحة أو غيرها إلا بإرادة الله تعالى وقدرته[3]، والمسلم متى أمكن حمل كلامه على معنى صحيح سالم من التكفير وجب المصير إليه أ هـ كلام الشبراخيتي، ثم نقل الشيخ عبد الغني رضي الله عنه فتوى الشيخ سليمان البرخيتي المالكي بذلك وأتبعها بفتوى الشمس الشويري الشافعي التي قدمتها في أواخر الباب الأول من هذا الكتاب ، وقال بعدها : وهذه صورة ما أجاب به الإمام الهمام الشيخ محمد الخليلي الشافعي.

وذكر فتواه بطولها إلى أن قال الخليلي رحمه الله : واعلم أن الاعتراض على القوم، يعني الصوفية، مما يوجب الخذلان فيوقع فاعله في واد من الخسران كما نص على ذلك العلامة ابن حجر من أئمتنا ، فمن اعترض عليهم يخشى عليه سوء الخاتمة كما وقع لكثير من الناس أنهم مقتوا بذلك ولم يفلحوا ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[4].

قال الشيخ الخليلي وأما قوله ، يعني المعترض إنه لا يجوز التوسل بالأنبياء

---

(2) سورة المائدة : الآية 35.

(3) الصحيح أن يقول لأن ذلك بيد الله أو بإرادة الله وقدرته لا أن يقول (إلا بإرادة الله) فالسؤال والدعاء يوجه إلى الله سبحانه وتعالى والإجابة منه . لأن العبارة عاليه توحي بأن قضاء المصلحة أو الحاجة قد تكون من الولي بإرادة الله ونرى أن هذا ليس هو مقصود الشيخ.

(4) سورة الأنعام: الآية 125 .

والأولياء ، فهذا كذب وافتراء وقد نص أئمتنا على أنه لا يجوز التوسل بأهل الخير والصلاح ، ولا يظن عامي من العوام فضلاً عن الخواص أن نحو سيدى أحمد البدوى يحدث شيئاً فى الكون ، وإنما يرون أن رتبتهم تقصر عن السؤال من الله تعالى ، فيتوسلون بمن ذكر تبركاً بهم كما لا يخفى .

قال رحمه الله: إذا علمت ذلك علمت أن التوسل بالأنبياء والأولياء جائز وارد عن السلف والخلف سواء كانوا أحياء أم أمواتاً؛ ولا ينكر ذلك إلا من ابتلى بالحرمان أو سوء العقيدة، نعوذ بالله منه ومن سيرته فجميع ما قاله مردود عليه ووجب أن لا يعول عليه. وقال العارف النابلسي قبل ذلك فى كتابه المذكور نقلاً عن فتوى الشيخ الإمام العلامة أبي العز أحمد بن العجمي الشافعي الوفائي الأزهرى؛ وقول : يا سيدى أحمد أو يا شيخ فلان ليس من الإشراك لأن القصد التوسل والاستعانة . قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.(5)

في توضيح هذه المسألة:يقول جامعه الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه : اعلم أن جميع المسلمين الزائرين والمستغيثين بعباد الله الصالحين ولا سيما الأنبياء والمرسلين خصوصاً سيدهم الأعظم صلى الله عليه وسلم هم مع كمال تعظيمهم لأولئك السادات بالزيارات والاستغاثات يعلمون أنهم من جملة عبيد الله تعالى لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم من دون الله تعالى ضراً ولا نفعاً ولكنهم أحب عبيده تعالى إليه وأقربهم زلفى لديه.

وهو سبحانه قد اتخذهم ولا سيما المرسلين منهم وسائط بينه وبين خلقه. فى تبليغ دينه وشرائعه، فاتخذوهم خلقه المجيبون لدعوتهم المصدقون بنبوتهم وصفوتهم وسائط إليه فى غفران زلاتهم وقضاء حاجاتهم لعلمهم بأن المناسبة بينهم وبينه تعالى أقوى بكثير من المناسبة بين غيرهم وبينه عز وجل وإن كانوا كلهم عبيده تعالى؛ فإذا علم ذلك يعلم يقيناً أن تعظيمهم وتوقيرهم والتوسل بهم إليه تعالى فضلاً عن كونه لا يخل بتوحيده سبحانه وتعالى هو من لباب توحيده، وخالص دينه، وأحسن أنواع عباداته عز وجل، فكيف يقال مع هذا إن

---

(5) سورة المائدة: الآية 35 .

تعظيمهم يخل بالتوحيد، هذا والله عكس الموضوع، ولا يقدم على القول به مسلم موفق.

فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرا من خلقه ولو حصل من المخالفين أدنى تدقيق لعرفوا أنفسهم على الباطل بشذوذهم عن السواد الأعظم ، وهو جمهور أمته صلى الله عليه وسلم حتى إن العلم بهذه المسألة : أى مشروعية السفر لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومثله الاستعانة به صلى الله عليه وسلم من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة عند جميع العلماء[6] والعوام من أهل الإسلام، حتى قال بعض أئمة المالكية كما نقله السبكي فى (شفاء السقام) وابن حجر فى (الجوهر المنظم) بكفر المانعين لذلك[7] وإن كان هذا القول غير معتمد، وليس فى شيء من الاستغاثة وشد الرحل ما يأباه العقل أو النقل.

وحديث منع شد الرحال هو وارد فى المساجد بالتصريح، ولا داعي إلى تعميمه فى غيرها، وعبارته لا تفيد ذلك من جهة العربية، وهو غير صحيح من جهة الأحكام الشرعية، وتفصيل ذلك تقدم فى الباب الأول، وكل ما أتوا به فى هذا الباب من المحاذير والأوهام تأباه هذه الشريعة الحنيفية السمحة ولا يقتضيه دين الإسلام ولا يخفى على أحد من المسلمين، بل وغير المسلمين عنده أدنى إلمام بمعرفة هذا الدين المبين وأحوال من اتبعه من المؤمنين أن جمهور الأمة المحمدية من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والصوفية وغيرهم من الخواص والعوام من جميع مذاهب الإسلام ، متفقون بالقول والفعل على استحسان الاستغاثة والتوسل والتشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى لقضاء الحوائج الدنيوية والأخروية، واستحباب شد الرحال ، والسفر لزيارته صلى الله عليه وسلم من الأقطار البعيدة والقريبة حتى صار ذلك عندهم بمنزلة الأمور المعلومة من الدين بالضرورة بحيث لا يجهله ولا يتصور خلافه أحد، بل لا يتوهم خلافه ولا يتخيله كثير من طلبة العلم فضلا عن جمهور العامة الذين لا يخطر شيء من ذلك فى بال أحد منهم.

---

(6) الصحيح أن يقال جمهور العلماء وجميع العوام لأن بعض العلماء لا يقر ذلك وهم الذين ترد عليهم هذه الرسالة.

(7) يجب الا يصل الخلاف فى هذا الشأن إلى تكفير المسلمين بعضهم بعضا لا الموافقين ولا المانعين .

بل ولا يجوزون أنه يوجد مخالف من المسلمين فى استحسان ذلك، وما زالت الأمة بحمد الله تعالى كذلك يتلقاه المتأخرون عن المتقدمين، ويعتقدون كما هو الواقع أن ذلك من أفضل الطاعات وأكمل القربات إلى أن شذ عنهم أقل من القليل من بعض العلماء أشهرهم فى ذلك ابن تيمية وتلميذاه المذكوران.(8)

وكل المخالفين لو جمعوا فى سالف الأعصار لا يجتمع منهم إلا شرذمة فى غاية القلة لو نسبناها إلى ذلك الجمهور الأعظم من علماء الأمة على اختلاف المذاهب والمشارب لوجدنا فى مقابلة كل واحد من المخالفين ألوف ألوف من أولئك العلماء الأعلام فضلا عمن سواهم من الخواص والعوام ، وهذا وحده كاف لظهور أن الحق مع السواد الأعظم الذي يجب اتباعه عند وقوع الخلاف كما ورد عن الشارع صلى الله عليه وسلم لامع تلك الشرذمة الشاذة .

وقد ورد فى الحديث عن النبى المختار [من شذ فى النار] وكل عاقل صحبه أدنى توفيق إذا أعمل فكره قليلا يدرك أن الحق الواضح مع أولئك الجماهير والخطأ الفاضح مع ذلك النزر القليل، مع أن ما قاله جماهير العلماء وعملوا به وشنعوا على مخالفه وعليه عمل الأمة من جواز الاستغاثة به والسفر لزيارته صلى الله عليه وسلم فيه تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم الذي نحن مكلفون به شرعا من جانب الله تعالى تكليفا لا مندوحة عنه، بل لا يصح ولا يتم الإيمان إلا به كما ورد ذلك في الكتاب والسنة واستفاض بين الأمة.

وما زعمته تلك الشرذمة الشاذة فيه عدم الرعاية لجنابه الشريف وقدره المنيف صلى الله عليه وسلم، و لا ينفعهم ما يلفقونه من الأوهام ، ويغلطون به أنفسهم ، ويلبسون به على العوم ما تأباه ذوو الأحلام ، وتجل عنه محاسن دين الإسلام، من أن ذلك شرك فى تعظيم الملك العلام سبحانه وتعالى ، فإن ذلك دليل على قصور الأفهام التى لبس عليها الشيطان وحيرها فى هذا الشأن، حتى جعلهم يستنبطون فى ذلك بحسب أوهامهم أحكاما تأباها هذه الشريعة السمحة ، التى ليلها مثل نهارها ، ولا يضل فيها إلا ضال ، ويفهمون من بعض آياتها وأحاديثها عكس مقصود الشارع ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد الوجود

---

(8) يقصد ابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب .

وصاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم، ويلبسون بذلك على الخلق ، ويعتقدون خلاف الحقيقة والحق، ويخالفون هذه الأمة المحمدية التى لا تجتمع على ضلالة ، وقد ألهمها الله تعالى بفضله رشدها وهداها إلى معرفة درجات التعظيم الواجب لله تعالى ، وسادات عبيده الكرام الذين اصطفاهم من الأنام، ولا سيما حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم.

ولا يشك عاقل بأن تعظيم خواص عبيد الله وأصفيائه من الأنبياء والأولياء فى حياتهم وبعد مماتهم هو فى الحقيقة تعظيم لله تعالى، ولا يفهم موفق أن فى ذلك شركا مع الربوبية لأنهم عبيده الطائعون وخدامه الصادقون، الذين قضوا أعمارهم فى خدمته كما يحب ويرضى سبحانه وتعالى، وكانوا الوسائط بينه وبين خلقه فى إرشادهم وهدايتهم وتبليغهم شرائعه وتعريفهم دينه وكيفية عبادته وما يجب له تعالى من أوصاف الكمال وما يستحيل عليه من أوصاف النقص، وبذلك امتازوا عن سائر عبيده عز وجل ، وصاروا أقربهم وأحبهم إليه ، فاستحقوا بذلك أن يعظمهم الناس لا لذاتهم بل لعلمهم أن تعظيمهم إياهم من أجل تعظيم الله لهم فهو تعظيم له سبحانه وتعالى ، وليس هذا من العلوم الدقيقة التى تختص بها العلماء الأعلام ولا تدركها العوام ، بل هو من الأمور التى تدرك بالبداهة.

وقد جبلت عليها طبائع الناس عالمهم وجاهلهم ، إذ استوى أدنى الناس عقلا وأكثرهم فضلا فى معرفة أن إكرام عبيد السلطان وأتباعه وتعظيمهم هو من أحسن وجوه التقرب إليه لقضاء حوائجهم عنده، وكلما كان ذلك العبد أو التابع أقرب له وأحب إليه كان إكرامه وتعظيمه والتوسل به إليه أقرب فى نجاح الحاجة وحصول المقصود ، كما أنه يغضبه تحقير عبيده وأتباعه فيترتب على ذلك سخطه كما ترتب على تعظيمهم وإكرامهم.. الخ وإكرامهم رضاه، وهكذا الأمر هنا فى تعظيم أنبياء الله تعالى وأصفيائه وخواص عبيده، فهو من أقوى أسباب رضاه تعالى كما أن تحقيرهم من أقوى أسباب غضبه عز وجل .

واعلم أنه لا عبرة فى المحاذير الموهومة التى ذكروها لأنها فضلا عن كونها لا مقبولة ولا معقولة هى إلى الآن فى كل هذه الأعصار لم يحصل منها شىء، فلم يترتب على زيارتهم، والاستغاثة بهم دعوى الألوهية فى أحد منهم من المستغيثين

والزائرين ، والحمد لله رب العالمين .

وأنت إذا نظرت إلى كل فرد من أفراد المسلمين عامتهم وخاصتهم لا تجد فى نفس أحد منهم غير مجرد التقرب إلى الله تعالى لقضاء حاجاتهم الدنيوية والأخروية بالاستغاثات والزيارات لأولئك السادات مع علمهم بأنهم عبيد الله تعالى ليس لهم من الأمر شيء، فقلوب المسلمين وجوارحهم ولحمهم ودمهم مجبولة – والحمد لله – على توحيد الله تعالى واعتقاد أنه الفعال المطلق المستحق للتعظيم بالأصالة وحده لا شريك له ، وتعظيمهم لسواه من خواص عبيده إنما يكون بقدر منزلة ذلك العبد عند الله تعالى بحسب ما علموه، فهم يعظمون حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الخلق لعلمهم أنه أحب عبيده تعالى إليه وأقربهم لديه.

ثم يعظمون بعده الأنبياء المرسلين أكثر من غير المرسلين لأن درجاتهم فى الفضل تلى درجته صلى الله عليه وسلم، ثم يعظمون بعدهم سائر الأنبياء أكثر من الأولياء لعلمهم بأنهم أفضل منهم عند الله تعالى ، ثم يعظمون أهل بيته وأصحابه صلى الله عليه وسلم بحسب ما علموه من درجاتهم عند الله ورسوله ، وكذلك سائر الأولياء يعظمونهم بحسب ما ثبت فى نفوسهم من قربهم من الله تعالى .

أما آل النبى وأصحابه رضى الله عنهم ، فقد جعلت لهم هذه القرابة والصحبة مزية امتازوا بها عند الله تعالى ورسوله عن سائر الأولياء تقتضى تعظيمهم لمجرد القرابة والصحبة، وهم مع ذلك درجات بحسب ما عندهم من الفضل والتقوى ومحاسن الصفات.

وأما الأولياء وهم المؤمنون المتقون والعلماء العاملون والغزاة المجاهدون فهم إنما يمتازون عن غيرهم بعلمهم وتقواهم وما فضلهم الله به من الكرامات وخوارق العادات ، وما خدموا به هذه الشريعة المحمدية ونفعوا به الأمة الإسلامية من العلوم والمعارف والفتوحات والذب عن المسلمين والإسلام : بعضهم بحد القلم ، وبعضهم بحد الحسام.

فمتى ثبت عند المسلمين : إما بالمشاهدة أو التواتر أو نقل الثقات من المؤلفين وغيرهم أن فلانا كان من الأولياء العارفين أو من العلماء العاملين أو من المؤمنين

الصالحين أو من الشهداء والمجاهدين يعظمونه بالزيارة والتوسل بحسب ما ثبت فى نفوسهم من درجة قربه إلى الله تعالى وحسن طاعته لمولاه عز وجل ، ولا يعظمون أحدا منهم لذاته أصلا، فالتعظيم كله راجع لله تعالى فهو لا شك من جملة الطاعات له عز وجل التى يؤجرون عليها إن شاء الله تعالى ، ولو فرضنا أن بعض أولئك المزارين ليس كما ظنه بهم الزائرون من الولاية والصلاح ، فهم بذلك إنما والوا أولياء الله وأحبوهم فى الله وهم يعلمون يقينا أنه لا أحد من خلق الله يستحق معه تعالى ذرة من التعظيم لذاته.

بل ذلك كله راجع له سبحانه وتعالى بالأصالة، وهو من فضله الذي تكرم عليهم بالأوصاف الجميلة التى ميزهم بها عن سائر عبيده، فنالوا منهم لأجله ذلك التكريم والتعظيم وخلع عليهم حلل كرامته فى حياتهم وبعد مماتهم وفى دنياهم وآخرتهم وهو البر الكريم، فمن حاول من تلك الشرذمة الشاذة شرذمة ابن تيمية أن لا يعظم أحدا من خواص عبيد الله الصالحين زاعما أن ذلك يخل بتعظيم الله تعالى فقد خالف الحق وعكس الحقيقة وتعدى برأيه الفاسد على حقوق الله تعالى وأخل بذلك فى تعظيمه اللائق بأوصاف ربوبيته وسيادته المطلقة، وأراد أن يحجر عليه عز وجل اختياره المطلق فى تخصيص من شاء من الأصفياء عبيده بالأوصاف الجميلة التى تقربهم إليه وتحمل الناس على تعظيمهم لأجله والتوسل بهم لديه سبحانه وتعالى. وبعكس حب المسلمين لأولياء الله تعالى بغضتهم لأعدائه عز وجل ، فتراهم يبغضونهم أحياء وأمواتا وما ذاك إلا محبة فى الله تعالى ، وهم مكلفون شرعا بموالاة أوليائه ومعادة أعدائه سبحانه وتعالى، وكم من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وردت فى ذلك دلت على كثرة اعتناء الشارع بالحب فى الله والبغض فى الله، كما وردت آيات وأحاديث كثيرة فى الثناء على أنبياء الله تعالى وعباده الصالحين، ولا سيما حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم ، أليس ذلك من تعظيم الله تعالى لهم وحبه إياهم؛ كما أن ما ورد من الآيات والأحاديث فى ذم أعدائه تعالى هو تحقير من الله تعالى لهم . أليس من تمام طاعته تعالى أن نعظم ونحب أصفياءه الذين أثنى عليهم وعظمهم، ونحقر ونبغض أعداءه الذين ذمهم وحقرهم ؟ أليس هو تعالى الذي دلنا بالثناء على

أوليائه على رعايته لهم وعلو مقامهم عنده ومحبته إياهم.

فإذا عظمناهم وتقربنا وتشفعنا وتوسلنا بهم إليه لقضاء حوائجنا الدنيوية والأخروية مع اعتقادنا الجازم الذي لا يعتريه خلل ولا يشوبه خطأ ولا زلل أنهم عبيده،وليس لهم معه من الأمر شيء، وأنه تعالى يشفع من شاء منهم ويرد شفاعة من شاء ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[9] ولا يجب عليه تعالى لأحد شيء، وإنما هو من فضله أثنى عليهم فى كتابه وأثنى عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه ببيان أوصافهم الجميلة، وهى كلها ترجع إلى صدق عبوديتهم لله تعالى وحسن خدمتهم له عز وجل، فعظمناهم لذلك واتخذناهم وسائط لقضاء حوائجنا عنده لكونهم، وإن شاركونا فى أصل العبودية له تعالى، قد امتازوا عنا بما تفضل الله عليهم به من الرسالة والنبوة والولاية وكثرة العلم والعمل والمعرفة والطاعات وسائر الخدمات التى تليق به تعالى. أنكون بذلك قد أشركنا بعبادته تعالى، أو نكون قد أطعناه سبحانه وتعالى بتعظيم من عظم الله واحتقار أنفسنا عن أن نكون أهلاً لطلب حوائجنا منه تعالى بلا واسطة لكثرة ذنوبنا وتقصيرنا فى طاعة مولانا عز وجل، ولذلك اتخذنا أفضل عبيده وسائل إليه لنوال فضله، فهذا لا يشك عاقل بأنه من حسن الأدب مع الله تعالى الذي يترتب عليه رضاه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[10].

واعلم أن هذه الشرذمة الشاذة التى تمنع من ذلك هى توافق جمهور العلماء والمسلمين فى أن لأنبياء الله تعالى وأوليائه خصوصية عند الله تعالى امتازوا بها عن سائر الناس فى حياتهم ويوم القيامة، وأنه يجوز الاستغاثة والتوسل والاستشفاع بهم إلى الله تعالى فى هاتين الحالتين لورود الأحاديث الصحيحة بذلك، ويسلمون بحياة الأنبياء فى قبورهم لصحة الأحاديث الكثيرة بها.

ولكن يقولون إنها حياة برزخية دون حياة الدنيا والآخرة، ويسلمون أن لأرواح الأولياء بل لأرواح سائر المؤمنين وغيرهم اتصالاً بأجسامهم فى قبورهم

---

(9) سورة البقرة : الآية 255 .

(10) سورة الأعراف : الآية 43 .

وأنها تزورها فى بعض الأحيان وأنهم يعلمون بمن يزورهم، وأن الميت يتأذى مما يتأذى منه الحى، ولذلك حرم الجلوس على القبور والمشى عليها لورود الأحاديث الصحيحة بذلك، وأنه يستحب زيارة القبور ومخاطبة الأموات بما ورد فى الأحاديث الصحيحة من قول الزائر: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإذا كان الأمر كذلك فلم لا يجوز التوسل والاستعانة والاستشفاع بأصحاب الخصوصيات منهم الأنبياء والأولياء بعد مماتهم كما جاز قبل ذلك فى حياتهم وبعد ذلك يوم القيامة.

والله تعالى فى جميع المواطن الثلاثة هو الله تعالى وحده لا شريك له وهم خواص عبيده الذين جاز التوسل بهم إليه تعالى من قبل ومن بعد، فلم لا يجوز فى البين، وتعظيمهم لأجله هو فى الحقيقة راجع إليه تعالى، ولا وجه لذم من فعله والاعتراض عليه وأى محذور فى ذلك كما زعموه.

ونحن من أول الإسلام إلى الآن لم نسمع بأحد من المسلمين اعتقد الألوهية فى واحد من الأنبياء والصالحين بعد موتهم. بل الذين ضل بهم بعض الناس منهم واعتقدوا فيهم الألوهية كسيدنا عيسى عليه السلام من أنبياء الله وسيدنا علي رضى الله عنه من أوليائه تعالى. إنما ضلوا بهم فى حياتهم لما شاهدوه منهم من خوارق العادات واستمر بهم ذلك الضلال إلى ما بعد . فأصل ضلالهم لم يقع منهم من زيارتهم للقبور واستغاثتهم بهم، بل وقع فى حياتهم كما علمت.

والمخالفون لا يمنعون الاستغاثة بالأنبياء والأولياء والسفر لزيارتهم فى حياتهم، فظهر أن المحذور الذي ذكروه لا يعول عليه ولا يلتفت إليه، وأن زعمهم الفرق بين الحياة والممات ويوم القيامة هو فى غير محله، إذ هذا الفرق إنما هو بحسب ما عندهم. وأما الله تعالى الذي اختص خواص عبيده بما اختصهم به من الأوصاف الجميلة التى أجلها صدق عبوديتهم وحسن عبادتهم له تعالى، فلا فرق عنده بين هذه المواطن الثلاثة، قد استوى عنده عز وجل رضاه عنهم ومحبته إياهم فى حياتهم ومماتهم ويوم القيامة، مع أن صفاء أرواحهم الطاهرة بعد الممات لا ينكره إلا جاهل أو مكابر.

واعلم أن جميع المسلمين على علم يقينى بأن الله تعالى هو السيد المطلق

للخلائق أجمعين وكلهم عبيده، قد اشترك فى وصف العبودية له عز وجل اتقاهم وأشقاهم، ولكنهم فيها درجات ، فأشدهم عبودية له تعالى الأنبياء والملائكة لأن معرفتهم بعظمته وجلاله أشد من معرفة من هو دونهم، وهم أيضـــاً درجـــات، أعظمهم درجة وأعلاهم فى العبودية رتبة سيدنا محمد سيد عبيد الله وأحبهم إليـه وأفضلهم من كل الوجوه لديه، وتلى رتبته صلى الله عليه وســـلم فى العبوديـــة رتب الأنبياء ورؤساء الملائكة ثم عوامهم وأوليائه الموحدين، ثم ســـائر المؤمنـــين بحسب درجاتهم فى التقوى ومعرفة الله تعالى؛ وأدنى الناس فى مراتب العبوديـــة الكفار الذين أشركوا بالله تعالى فلم يخلصوا عبوديتهم له، بل زعموا أنهم عبيـــد غيره سبحانه وتعالى ، وإن كان لسان حالهم يكذبهم كعبـــاد الأصنـــام وعبـــاد المسيح عليه السلام .

إذا علمت ذلك تعلم أن قلة الشرف للخلق وزيادته بحسب قلـــة وصـــف العبودية فيهم وزيادته، فكلما كانت العبودية أقوى كان الشرف أعلى، ومـــن هنا يظهر جلياً أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم إنما ســـاد الخلـــق علـــى الإطلاق بعد الملك الخلاق بعلو درجته وارتفاع منزلته وسمو مرتبته فى العبوديـــة لله تعالى، فهو العبد الخالص الذي لم يشم رائحة الألوهية وكذلك سائر الأنبيـــاء ووراءهم الأولياء.

إلا أنه صلى الله عليه وسلم أمكنهم فى ذلك ، وقد حماه الله تعـــالى مـــن أن يدعى فيه الألوهية أحد من الناس كما ادعوها فى سيدنا عيسى عليـــه الســـلام وعلى رضى الله عنه، مع أنه صلى الله عليه وسلم قد ظهر له مـــن المعجـــزات والفضائل وخوارق العادات ما لم يشاركه فيه أحد ، وهذه أمته صلى الله عليـــه وسلم مع شدة محبتها له أكثر من محبة سائر الأمم لأنبيائهم لم نسمع بأحد قـــط منهم أدعى فيه صلى الله عليه وسلم الألوهية من عـــهده إلى الآن . فتبـــين أن المحاذير التى تخيلها ابن تيمية وجماعته لا يلتفت إليها ولا يعول عليها على أنـــه لم يحصل أى شيء منها، وإنما هى مجرد خيالات وأوهام لا ينبنى عليـــها أحكـــام، والأحاديث التى استدلوا بها لذلك إنما حملوها على غير محاملـــها كمـــا ذكـــره العلماء ونقلته عنهم فى مواضعه من هذا الكتاب .

(فائدة مهمة) قال العارف الكبير الشهير سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى (المنن الكبرى) : سمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقـــول : إياكم أن تسألوا فى حوائجكم الأولياء الذين ماتوا فإن غالبهم لا تصرف لـــه فى القبر ، وأما غير الغالب: كالإمام الشافعى رضى الله عنه، وسيدى أحمد البـدوى رضى الله عنه وأضرابهم فربما جعل الله تبارك وتعالى لهم التصريف فى قبورهـــم بحسب صدق من توجه إليهم[11]. قال : أى الخواص رضى الله عنـــه ، وقـد استدارت أبواب جميع الأولياء رضى الله تعالى عنهم لتغلق وما بقى مفتوحـــاً إلا باب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وزاده فضلاً وشرفاً لديه ، فمن كان لـه حاجه فليصل على النبى صلى الله عليه وسلم ألف مرة بتوجه تام، ثم يســـأله فى قضاء حاجته فإنها تقضى إن شاء الله تعالى .

(تتمة : أذكر فيها كلام بعض أئمة العلماء والأولياء فى زيارة قبور الصـالحين والانتفاع بزيارتهم وصفاء أرواحهم بعد مماتهم) .

قال سيدى العلامة السيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى : فى كتابـــه (تقريـــب الأصول لتسهيل الوصول) قد صرح كثير من العارفين أن الولى بعد وفاته تتعلق روحه بمريديه فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات . قال : وممن صرح بذلـــك قطب الإرشاد سيدى عبد الله بن علوى الحداد ، فإنه قال رضى الله عنه : الـولى يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم فى حياته لأنـــه فى حياته كان مشغولاً بالتكليف وبعد موته طرح عنه الأعباء وتجرد، والحى فيـه خصوصية وبشرية ، وربما غلبت إحداهما وخصوصاً فى هذا الزمان فإنها تغلـــب البشرية ، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط.

وقال القطب الحداد أيضاً: إن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منـــهم إلا أعيـــانهم وصورهم، وأما حقائقهم فموجودة، فهم أحياء فى قبورهم، وإذا كان الولى حيـاً فى قبره فإنه لم يفقد شيئاً من علمه وعقله وقواه الروحانية، بل تزداد أرواحـــهم بعد الموت بصيرة وعلماً وحياة روحانية وتوجهاً إلى الله تعالى، فـــإذا توجـــهت أرواحهم إلى الله تعالى فى شىء قضاه سبحانه وتعالى وأجراه إكراماً لهم، وهـــذا

---

(11) ليس هناك دليل شرعى على ذلك .

معنى قول بعضهم: إن لهم التصرف ، فالتصرف الحقيقي الذي هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالى في شيء قضاه سبحانه وتعالى وأجراه إكراماً لهم، وهذا معنى قول بعضهم: إن لهم التصرف، فالتصرف الحقيقي الذي هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالى وحده، فالواقع منهم من جملة الأسباب العادية التي لا تأثير لها وإنما يوجد الأمر عندها لا بها على حسب ما أجراه الله تعالى من العوائد أ . هـ.

ثم ذكر في كتابه المذكور شيئاً من كلام سيدى أبي المواهب الشاذلي ، ومنه قوله: سمعت شيخنا أبا عثمان المغربي رضي الله عنه يقول : إذا زار الإنسان قبر الولي فإن ذلك الولي يعرفه، وإذا سلم عليه يرد عليه السلام وإذا ذكر الله على قبره ذكر معه لا سيما إن ذكر لا إله إلا الله فإنه يقوم ويجلس معه متربعاً ويذكر معه ، ثم قال الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه : وحاشا قلوب العارفين أن تخبر بغير فهم ، ومعلوم أن الأولياء أحياء في قبورهم إنما ينقلون من دار إلى دار ، فحرمتهم أمواتاً كحرمتهم أحياء، والأدب معهم بعد موتهم كالأدب معهم حال الحياة وفي حال الموت ، وإذا مات الولي صلى عليه جميع أرواح الأنبياء والأولياء .

قال : وعلى هذا الذي ذكره شيخنا قول صاحب الحقائق والدقائق حاشا الصوفي أن يموت. وكان الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه أيضاً يقول : من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته، ومن العباد من تولى الله تعالى تربيته بنفسه بغير واسطة ، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ولو ميتاً في قبره، فيربي مريده وهو في قبره ويسمع مريده صوته من القبر[12] ولله عباد يتولى تربيتهم النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه[12] من غير واسطة لكثرة صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام فخر الدين الرازي في المطالب في الفصل الثالث عشر في بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى: إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوى النفس كامل الجوهر ووقف هناك ساعة وحصل تأثير في نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة.

فلا يخفى أن لنفس ذلك الميت تعلقاً بتلك التربة أيضاً ، فحينئذ يحصل لنفس

---

(12) ليس هناك دليل شرعي من كتاب أو سنة على ذلك .

الزائر الحى ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى، فكل ما حصل فى نفس هذا الزائر الحى من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخشوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت.

وكل ما حصل فى ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة والآثار القوية الكاملة ينعكس من نور إلى روح هذا الحى الزائر، وبهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سبباً لحصول تلك المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح هذا الزائر، فهذا هو السبب والأصل فى مشروعية الزيارة، ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرى أدق وأخفى مما ذكرنا، وتمام الحقائق ليس إلا عند الله تعالى، انتهى كلام الرازى .

قال الشيخ أبو المواهب : قال بعض العارفين : وللأولياء عند زيارة الأولياء وقائع كثيرة تدل على اعتناء المزور بالزائر وتوجهه إليه بالكلية على قدر توجهه وقابليته ، انتهى ما نقلته من (تقريب الأصول) للسيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى .

الفصل الثاني

خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام

تأليف السيد أحمد دحلان – مفتى الشافعية فى مكة المكرمة

قال الشيخ يوسف النبهاني فى نقل كلام الإمام العلامة ناصر السنة فى هذا الزمان سيدى السيد أحمد دحلان مفتى الشافعية فى مكة المشرفة فى كتابه (خلاصة الكلام : فى بيان أمراء البلد الحرام) وله كتاب مستقل فى الرد على الوهابية، ولكن كلامه فى الكتاب المذكور كاف واف شاف، وها أنا أنقله برمته وإن تكرر بعضه مع ما تقدم وهو جامع لكل ما يلزم ذكره فى هذا الشأن من إثبات الحق ودحض الأباطيل، ورد شبههم بأوضح بيان وأقوى دليل .

قال رحمه الله تعالى : ذكر الشبه التى تمسك بها الوهابية : ينبغى أولاً أن نذكر الشبهات التى تمسك بها ابن عبد الوهاب فى إضلال العباد ، ثم نذكر الرد عليه ببيان أن كل ما تمسك به زور وافتراء وتلبيس على عوام الموحدين ؛ فمن شبهاته التى تمسك بها زعمه أن الناس مشركون فى توسلهم بالنبى صلى الله عليه وسلم وبغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين وفى زيارتهم قبره صلى الله عليه وسلم وندائهم له بقولهم : يا رسول الله نسألك الشفاعة.

وزعم أن ذلك كله إشراك، وحمل الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين كقوله تعالى ﴿فَلَا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾(1) وقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾(2) وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾(3) وقوله تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(4) وقوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ

---

(1) سورة الجن : الآية 18 .

(2) سورة الأحقاف : الآية 5 .

(3) سورة الشعراء : الآية 213 .

(4) سورة يونس : الآية 106 .

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ [5] وقوله تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[6]، وقوله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ [7] وأمثال هذه الآيات كثير فى القرآن كلها حملها على الموحدين. قال محمد بن عبد الوهاب: إن من استغاث أو توسل بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه يكون مثل هؤلاء المشركين ويكون داخلاً فى عموم هذه الآيات، وجعل زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم أيضاً مثل ذلك ، وقال فى قوله تعالى حكاية عن المشركين فى اعتذارهم عن عبادة الأصنام : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[8] .

إن المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فإن المشركين ما اعتقدوا فى الأصنام أنها تخلق شيئاً، بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [9] وقوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [10] فما حكم الله عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[11] فهؤلاء مثلهم. هكذا احتج محمد عبد الوهاب ومن تبعه على المؤمنين ، وهى حجة باطلة، فإن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الأولياء آلهة وجعلوهم شركاء لله، بل هم يعتقدون أنهم عبيد الله مخلوقون له ولا يعتقدون استحقاقهم العبادة ولا أنهم يخلقون شيئاً ولا أنهم يملكون نفعاً أو ضراً، وإنما قصدوا التبرك بهم لكونهم أحباء الله المقربين الذين اصطفاهم واجتباهم

---

(5) سورة الرعد : الآية 14 .
(6) سورة فاطر : الآية 14 .
(7) سورة الإسراء : الآية 56 .
(8) سورة الزمر : الآية 3 .
(9) سورة الزخرف : الآية 78 .
(10) سورة لقمان : الآية 25 .
(11) سورة الزمر : الآية 3 .

وببركتهم يرحم الله عباده.

ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة سنذكر لك كثيراً منها، فاعتقاد المسلمين أن الخالق النافع الضار هو الله وحده ، ولا يعتقدون استحقاق العبادة إلا لله وحده ، ولا يعتقدون التأثير لأحد سواه ، وأما المشركون الذين نزلت فيهم الآيات السابق ذكرها ، فكانوا يتخذون الأصنام آلهة، والإله معناه المستحق للعبادة ، فهم يعتقدون استحقاق الأصنام للعبادة ، فاعتقادهم استحقاقها للعبادة هو الذى أوقعهم فى الشرك، فلما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تملك نفعاً ولا ضراً قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يجوز لمحمد بن عبد الوهاب وأتباعه أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الأصنام .

إذا علمت هذا تعلم أن جميع الآيات المتقدم ذكرها وما ماثلها من الآيات خاص بالكفار المشركين ولا يدخل فيها أحد من المؤمنين، لأنهم لا يعتقدون ألوهية غير الله تعالى ولا يعتقدون استحقاق العبادة لغيره، وقد تقدم حديث البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما فى وصف الخوارج أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فحملوها على المؤمنين. فهذا الوصف صادق على ابن عبد الوهاب وأتباعه فيما صنعوه.

ولو كان شيء مما صنعه المؤمنون من التوسل إشراكا ما كان يصدر من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها، فإنهم جميعهم كانوا يتوسلون ، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم : "اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك" وهذا توسل صريح لا شك فيه ، وكان يعلم هذا الدعاء أصحابه رضى الله عنهم ويأمرهم بالإتيان به . فقد روى ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم أنى أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاى هذا إليك، فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له

سبعون ألف ملك] وذكره الجلال السيوطى فى الجامع الكبير.

وذكره أيضاً كثير من الأئمة فى كتبهم عند ذكر الدعاء المسنون عند الخروج إلى الصلاة، بل قال بعضهم: ما من أحد من السلف إلا وكان يدعو بهذا الدعاء عند خروجه إلى الصلاة، فانظر قوله [أسألك بحق السائلين عليك] فإن فيه التوسل بكل عبد مؤمن. وروى الحديث المذكور أيضاً ابن السنى بإسناد صحيح عن بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه ، ولفظه [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال : بسم الله آمنت بالله وتوكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق مخرجى هذا، فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك، أسالك أن تعيذنى من النار وأن تدخلنى الجنة]

ورواه الحافظ أبو نعيم فى عمل اليوم والليلة من حديث أبى سعيد بلفظ "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال : اللهم " إلى آخر ما تقدم فى رواية ابن السنى، ورواه البيهقى فى كتاب الدعوات من حديث أبى سعيد أيضاً، ومحل الاستدلال قوله: "بحق السائلين عليك" فهذا توسل صدر منه صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه أن يقولوه ، ولم يزل السلف من التابعين وأتباعهم ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة ولم ينكر عليهم أحد فى الدعاء به .

ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من التوسل قوله صلى الله عليه وسلم [اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى] ، وهذا اللفظ قطعة من حديث طويل رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : [لما ماتت فاطمة بنت أسد رضى الله عنها وكانت ربت النبى صلى الله عليه وسلم، وهى أم على بن أبى طالب رضى الله عنه دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها وقال رحمك الله يا أمى بعد أمى، وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها، قال فلما بلغوا اللحد حفره صلى الله عليه وسلم بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ثم قال :

الله الذى يحى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين] وروى ابن أبى شيبة عن جابر رضى الله عنه مثل ذلك ، وكذا روى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس رضى الله عنهما، ورواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس رضى الله عنه، ذكر ذلك كله الحافظ السيوطى فى الجامع الكبير.

ومن الأحاديث الصحيحة التى جاء التصريح فيها بالتوسل ما رواه الترمذى والنسائى والبيهقى والطبرانى بإسناد صحيح عن عثمان بن حنيف ، وهو صحابى مشهور رضى الله عنه [أن رجلاً ضريراً أتى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال ادع الله أن يعافينى ، فقال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير، قال فادعه، فأمره أن يتوضأ فليحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى اللهم شفعه فىّ، فعاد وقد أبصر] .

وفى رواية قال ابن حنيف [فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضر قط] وخرج هذا الحديث أيضاً البخارى فى تاريخه وابن ماجة والحاكم فى المستدرك بإسناد صحيح، وذكره الجلال السيوطى فى الجامع الكبير والصغير، ففى هذا الحديث التوسل والنداء ، وإن عبد الوهاب يمنع كلاً منهما ويحكم بكفر من فعل ذلك، وليس لابن عبد الوهاب أن يقول إن هذا إنما كان فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم، لأن الدعاء استعملته أيضاً الصحابة والتابعون بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لقضاء حوائجهم.

فقد روى الطبرانى والبيهقى : [أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان رضى الله عنه فى زمن خلافته فى حاجة فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته، فشكا ذلك لعثمان بن حنيف، فقال له ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل، ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك لتقضى حاجتى وتذكر حاجتك، فانطلق الرجل فصنع ذلك ثم أتى باب عثمان رضى الله عنه ، فجاءه البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه ، وقال اذكر حاجتك فذكر حاجته فقضاها، ثم قال له ما كان لك

من حاجه فاذكرها، ثم خرج من عنده فلقى ابن حنيف فقال لـــه : جــزاك الله خيراً ما كان ينظر فى حاجتى حتى كلمته لى، فقال ابن حنيف والله مــا كلمتــه ولكنى شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير فشكا إليه ذهـــاب بصره" على آخر الحديث المتقدم ، فهذا توسل ونداء بعد وفاته صلى الله عليــه وسلم .

وروى البيهقى وابن أبى شيبة بإسناد صحيح [أن الناس أصـــابهم قحــط فى خلافة عمر رضى الله عنه فجاء بلال بن الحارث رضى الله عنه على قبر النــبى صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكـــوا ، فأتـــاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وأخبره أنهم يسقون] وليس الاســتدلال بالرؤيا للنبى صلى الله عليه وسلم، فإن رؤياه وإن كانت حقاً لكن لا تثبت بهـــا الأحكام لإمكان اشتباه الكلام على الرائى لا لشك فى الرؤيا، وإنما الاســتدلال بفعل بلال بن الحارث فى اليقظة، فإنه من أصحاب النبى صلى الله عليه وســلم، فإتيانه لقبر النبى صلى الله عليه وسلم ونداؤه له وطلبه أن يستسقى لأمته دليــل على أن ذلك جائز.

وهو من باب التوسل والتشفع والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم، وذلـــك من أعظم القربات، وقد توسل به صلى الله عليه وسلم أبوه آدم قبـــل وجــود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها. قـــال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْــهِ﴾(12) إن الكلمات هى توسله بالنبى صلى الله عليه وسلم .

وروى البيهقى بإسناد صحيح فى كتابه (دلائل النبوة) الذى قال فيه الحــافظ الذهبى عليك به فإنه كله هدى ونور . عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قـال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أســألك بحق محمد إلا ما غفرت لى، فقال الله تعالى يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقـه؟ قال : يارب إنه لما خلقتنى رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إلــه إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليـــك،

---

(12) سورة البقرة : الآية 37 .

فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك] ، ورواه ايضاً الحاكم وصححه الطبرانى، وزاد فيه [وهو آخر الأنبياء من ذريتك] .

وإلى هذا التوسل أشار الإمام مالك رحمه الله تعالى للخليفة الثانى من بنى العباس ، وهو المنصور جد الخلفاء العباسيين . وذلك أنه لما حج المنصور المذكور وزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم سأل الإمام مالكاً وهو بالمسجد النبوى ، وقال له يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال مالك : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى ، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله فيك . قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[13] ذكره القاضى عياض فى الشفاء وساقه بإسناد صحيح، وذكره الإمام السبكى فى (شفاء السقام فى زيارة خير الأنام) والسيد السمهودى فى (خلاصة الوفا) والعلامة القسطلانى فى (المواهب اللدنية) ، والعلامة ابن حجر فى (تحفة الزوار ، والجوهر المنظم) وذكره كثير من أرباب المناسك فى آداب زيارة النبى صلى الله عليه وسلم . قال العلامة ابن حجر فى (الجوهر المنظم) رواية ذلك عن الإمام مالك جاءت بالسند الصحيح الذى لا مطعن فيه.

وقال العلامة الزرقانى فى (شرح المواهب) ورواها ابن فهد بإسناد جيد، ورواها القاضى عياض فى الشفاء بإسناد صحيح رجاله ثقات ليس فى إسنادها وضاع ولا كذاب. ومراده بذلك الرد على من لم يصدق رواية ذلك عن الإمام مالك ، ونسب له كراهية استقبال القبر، فنسبة الكراهية إلى الإمام مالك مردودة ، واستسقى عمر رضى الله عنه فى زمن خلافته بالعباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه لما اشتد القحط عام الرمادة فسقوا.

وذلك مذكور فى صحيح البخارى من رواية أنس بن مالك رضى الله عنه

---

(13) سورة النساء : الآية 64 .

وذلك من التوسل ، بل في المواهب اللدنية للعلامة القسطلاني أن عمر رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه. قال : يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا به في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى، ففيه التصريح بالتوسل .

وبهذا يبطل قول من منع التوسل مطلقا سواء كان بالأحياء أو بالأموات ، وقول من منع بغير النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن فعل عمر رضي الله عنه حجة لقوله صلى الله عليه وسلم [إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه] رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وغيره، وروى الطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل عن الفضل بن العباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [عمر معي وأنا مع عمر والحق بعدي مع عمر حيث كان]، وهذا مثل ما صح في حق علي رضي الله عنه حيث قال صلى الله عليه وسلم في حقه [وادر الحق معه حيث دار] وهو حديث صحيح رواه كثير من أصحاب السنن، فكل من عمر وعلي رضي الله عنهما يكون الحق معه حيث كان ، وهذان الحديثان من جملة الأدلة التي استدل بها أهل السنة على صحة خلافة الخلفاء الأربعة.

لأن عليا رضي الله عنه كان مع الخلفاء الثلاثة قبله لم ينازعهم في الخلافة، فلما جاءت الخلافة له ونازعه غيره قاتله. ومن الأدلة الدالة على أن توسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه حجة على جواز التوسل قوله صلى الله عليه وسلم [لو كان بعدي نبي كان عمر] رواه الإمام أحمد وغيره عن عقبة بن عامر وغيره .

وروى الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر فإنهما حبل الله الممدود من تمسك بهما فقد تمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها]، وإنما استسقى عمر رضي الله عنه بالعباس ولم يستسق بالنبي صلى الله عليه وسلم ليبين للناس أن الاستسقاء بغير النبي صلى الله عليه وسلم جائز ومشروع لا حرج فيه، لأن الاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم كان معلوما عندهم، فلربما يتوهم بعض

الناس أنه لا يجوز الاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

فبين لهم عمر رضي الله عنه الجواز ، ولو استسقى بالنبي صلى الله عليه وسلم لأفهم أنه لا يجوز الاستسقاء بغيره صلى الله عليه وسلم ، ولا يصح أن يقال إنما استسقى بالعباس ولم يستسق بالنبي صلى الله عليه وسلم لأن العباس حي والنبي صلى الله عليه وسلم قد مات ، لأن الاستسقاء إنما يكون بالحي ، لأن هذا القول باطل مردود بأدلة كثيرة : منها توسل الصحابة به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كما تقدم في القصة التي رواها عثمان بن حنيف ، وكما في حديث بلال ابن الحارث المتقدم، وكما في توسل آدم الذي رواه عمر رضي الله عنه كما تقدم ، فكيف يعتقد عدم صحته بعد وفاته، وقد روى التوسل به قبل وجوده مع أنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره .

فتخلص من هذا : أنه يصح التوسل به صلى الله عليه وسلم قبل وجوده وفي حياته وبعد وفاته، وأنه يصح التوسل أيضاً بغيره من الأخيار كما فعله عمر رضي الله عنه حين استسقى بالعباس رضي الله عنه، وذلك من أنواع التوسل كما تقدم ، وإنما خص عمر العباس رضي الله عنهما من سائر الصحابة لإظهار شرف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولبيان أنه يجوز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل، فإن علياً رضي الله عنه كان موجوداً وهو أفضل من العباس رضي الله عنه .

قال بعض العارفين : وفي توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما دون النبي صلى الله عليه وسلم نكتة أخرى أيضاً زيادة على ما تقدم، وهي شفقة عمر رضي الله عنه على ضعفاء المؤمنين وعوامهم، فإنه لو استسقى بالنبي صلى الله عليه وسلم لربما تتأخر الإجابة لأنها معلقة بإرادة الله ومشيئته، فإذا تأخرت الإجابة ربما يقع وسوسة واضطراب لمن كان ضعيف الإيمان بسبب تأخر الإجابة، بخلاف ما إذا كان التوسل بغير النبي صلى الله عليه وسلم فإنه إذا تأخرت الإجابة لا تحصل تلك الوسوسة والاضطراب .

والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة صحة التوسل وجوازه بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء

والصالحين كما دلت عليه الأحاديث السابقة، لأنا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيراً ولا نفعاً ولا ضراً للنبي صلى الله عليه وسلم باعتبار الخلق والإيجاد والتأثير ولا لغيره من الأحياء والأموات، فلا فرق في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وكذا بالأولياء والصالحين لا فرق بين كونهم أحياء أو أمواتاً لأنهم لا يخلقون شيئاً وليس لهم تأثير في شيء ، وإنما يتبرك بهم لكونهم أحباء الله تعالى، والخلق والإيجاد والتأثير لله وحده لا شريك له .

وأما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات فإنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات ونحن نقول [الله خالق كل شيء - والله خلقكم وما تعملون] فهؤلاء المجوزون التوسل بالأحياء دون الأموات هم الذين دخل الشرك في توحيدهم لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات، فهم الذين اعتقدوا تأثير غير الله تعالى، فكيف يدعون المحافظة على التوحيد وينسبون غيرهم إلى الإشراك "سبحانك هذا بهتان عظيم".

فالتوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد ، وليس لها في قلوب المؤمنين معنى إلا التبرك بذكر أحباء الله تعالى لما ثبت أن الله يرحم العباد بسببهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، فالمؤثر والموجد حقيقة هو الله تعالى، وهؤلاء سبب عادي في ذلك لا تأثير لهم، وذلك مثل السبب العادي فإنه لا تأثير له. وحياة الأنبياء في قبورهم ثابتة بأدلة كثيرة استدل بها أهل السنة وكذا حياة الشهداء والأولياء، وليس هذا محل بسط الكلام عليها .

وشبهة هؤلاء المانعين للتوسل أنهم رأوا بعض العامة يتوسعون في الكلام ويأتون بألفاظ توهم أنهم يعتقدون التأثير لغير الله تعالى ويطلبون من الصالحين أحياء وأمواتاً أشياء جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى، ويقولون للولي افعل لي كذا وكذا ، وربما يعتقدون الولاية في أشخاص لم يتصفوا بها، بل اتصفوا بالتخليط وعدم الاستقامة، وينسبون لهم كرامات وخوارق عادات وأحوالاً ومقامات ليسوا بأهل لها ولم يوجد فيهم شيء منها.

فإنما أراد هؤلاء المانعون للتوسل أن يمنعوا العامة من تلك التوسعات دفعاً

للإيهام وسداً للذريعة وإن كانوا يعلمون أن العامة لا تعتقد تأثيراً ولا نفعاً ولا ضراً لغير الله تعالى، ولا تقصد بالتوسل إلا التبرك ولو أسندوا للأولياء شيئاً لا يعتقدون فيهم تأثيراً. فنقول لهم : إذا كان الأمر كذلك وقصدتم سد الذريعة ، فما الحامل لكم على تكفير الأمة عالمهم وجاهلهم خاصهم وعامهم، وما الحامل لكم على منع التوسل مطلقاً؟ بل كان ينبغي لكم أن تمنعوا العامة من الألفاظ الموهمة وتأمروهم سلوك الأدب في التوسل، مع أن تلك الألفاظ الموهمة يمكن حملها على الإسناد المجازى مجازاً عقلياً كما يحمل على ذلك قول القائل:

هذا الطعام أشبعني وهذا الماء أرواني وهذا الدواء أو الطبيب نفعني، فإن ذلك كله عند أهل السنة محمول على المجاز العقلي. فإن الطعام لا يشبع والمشبع هو الله تعالى، والطعام سبب عادى لا تأثير له وكذا ما بعده . فالمسلم الموحد متى صدر منه إسناد الشيء لغير من هو له يجب حمله على المجاز العقلي، وإسلامه وتوحيده قرينة على ذلك كما نص على ذلك علماء المعاني في كتبهم وأجمعوا عليه.

وأما منع التوسل مطلقاً فلا وجه له مع ثبوته في الأحاديث الصحيحة ومع صدوره من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها، فهؤلاء المنكرون التوسل المانعون منه : منهم من يجعله حراماً، ومنهم من يجعله كفراً وإشراكاً، وكل ذلك باطل لأنه يؤدى إلى اجتماع معظم الأمة على الحرام والإشراك، لأن من تتبع كلام الصحابة والعلماء من السلف والخلف يجد التوسل صادراً منهم، بل ومن كل مؤمن في أوقات كثيرة، واجتماع أكثرهم على الحرام أو الإشراك لا يجوز لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح [لا تجتمع أمتي على ضلالة].

بل قال بعضهم إنه حديث متواتر، وقال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[14] فكيف تجتمع كلها أو أكثرها على ضلالة وهي خير أمة أخرجت للناس، فاللائق بهؤلاء المنكرين إذا أرادوا سد الذريعة منع الألفاظ الموهمة كما زعموا أن يقولوا : ينبغي أن يكون التوسل بالأدب وبالألفاظ التي ليس فيها إيهام، كأن يقول المتوسل: اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه

---

(14) سورة آل عمران : الآية 101 .

وسلم وبالأنبياء قبله وبعبادك الصالحين أن تفعل بي كذا وكذا، لا أنهم يمنعون التوسل مطلقاً، ولا أن يتجاسروا على تكفير المسلمين الموحدين الذين لا يعتقدون التأثير إلا لله وحده لا شريك له .

ومما تمسك به هؤلاء المنكرون للتوسل قوله تعالى﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ (15) فإن الله نهى المؤمنين في هذه الآية أن يخاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم بمثل ما يخاطب بعضهم بعضاً: كأن ينادوه باسمه، وقياسا على ذلك لا ينبغي أن يطلب من غير الله تعالى كالأنبياء والصالحين الأشياء التي جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى لئلا تحصل المساواة بين الله تعالى وخلقه بحسب الظاهر. وإن كان الطلب من الله تعالى على سبيل التأثير والإيجاد ومن غيره على سبيل التسبب والكسب، لكنه ربما يوهم تأثير غير الله تعالى فمنع من ذلك الطلب لدفع هذا الإيهام . والجواب أن هذا لا يقتضي المنع من التوسل مطلقاً ولا يقتضي منع الطلب إذا صدر من موحد، فإنه يحمل على المجاز العقلي بقرينة صدوره من موحد، فما وجه كونه حراماً أو شركاً؟ فلو قالوا إنه خلاف الأدب وأجازوا التوسل وشرطوا فيه أن يكون بالأدب والاحتراز عن الألفاظ الموهمة لكان له وجه، فالمنع مطلقاً لا وجه له .

ومن الأدلة الدالة على صحة التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ما ذكره العلامة السيد السمهودي في خلاصة الوفا حيث قال : روى الدارمي في صحيحه عن أبي الجوزاء قال : قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت انظروا إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق. قال العلامة المراغي : وفتح الكوة عند الجدب سنة أهل المدينة يفتحون كوة في أسفل الحرجة وإن كان السقف حائلاً بين القبر الشريف والسماء .

قال السيد السمهودي : وسنتهم اليوم فتح الباب المواجه للوجه الشريف والاجتماع هناك، وليس القصد إلا التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم

---

(15) سورة النور : الآية 63 .

والاستشفاع به إلى ربه لرفعة قدره عند الله تعالى.

وقال أيضاً العلامة السيد السمهودى فى خلاصة الوفا : إن التوسل والتشفع به صلى الله عليه وسلم وبجاهه وبركته من سنن المرسلين وسيرة السلف الصالحين، وذكر كثير من علماء المذاهب الأربعة فى كتب المناسك عند ذكرهم زيارة النبى صلى الله عليه وسلم أنه يسن للزائر أن يستقبل القبر الشريف ويتوسل إلى الله تعالى فى غفران ذنوبه وقضاء حاجاته ويستشفع به صلى الله عليه وسلم .

قالوا : ومن أحسن ما يقول ما جاء عن العتبى ، وهو مروى أيضاً عن سفيان بن عيينة وكل منهما من مشايخ الشافعى رضى الله عنه ، ثم بعد أن ذكر قصة العتبى المشهورة قال : وليس محل الاستدلال الرؤيا فإنها لا تثبت بها أحكام لاحتمال حصول الاشتباه على الرائى، وأما محل الاستدلال كون العلماء استحسنوا للزائر الإتيان بما قاله الأعرابى : قال العلامة ابن حجر فى (الجوهر المنظم) وروى بعض الحفاظ عن أبى سعيد السمعانى أنه روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنهم بعد دفنه صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام جاءهم أعرابى فرمى بنفسه على القبر الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، وحثى من ترابه على رأسه وقال يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله ما وعينا عنك، وكان فيما أنزله عليك قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾(16) وقد ظلمت نفسى وجئتك تستغفر لى إلى ربى ، فنودى من القبر الشريف أن قد غفر لك. وجاء ذلك عن على أيضاً من طريق أخرى، ويؤيد ذلك ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من قوله "حياتى خير لكم، تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتى خير لكم تعرض على أعمالكم ، ما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت لكم" .

ومما ذكره العلماء فى آداب الزيارة أنه يستحب أن يجدد الزائر التوبة فى ذلك الموقف الشريف ويسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلها توبة نصوحاً،

---

(16) سورة النساء : الآية 64 .

ويستشفع به صلى الله عليه وسلم إلى ربه عز وجل في قبولها، ويكثر الاستغفار والتضرع بعد تلاوة قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[17] ويقولون نحن وفدك يا رسول الله وزوارك جئناك لقضاء حقك والتبرك والاستشفاع بك مما أثقل ظهورنا وأظلم قلوبنا، فليس لنا يا رسول الله شفيع غيرك نؤمله ولا رجاء غير بابك نصله، فاستغفر لنا واشفع لنا عند ربك واسأله أن يمن علينا بسائر طلباتنا ويحشرنا في زمرة عباده الصالحين والعلماء العاملين .

وفي "الجوهر المنظم" أيضاً : أن أعرابياً وقف على القبر الشريف ، وقال : اللهم إن هذا حبيبك وأنا عبدك ، والشيطان عدوك ، فإن غفرت لي سر حبيبك وفاز عبدك وغضب عدوك، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك ورضي عدوك وهلك عبدك، وأنت يا رب أكرم من أن تغضب حبيبك وترضي عدوك وتهلك عبدك: اللهم إن العرب إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره، وإن هذا سيد العالمين فأعتقني على قبره يا أرحم الراحمين .

فقال له بعض الحاضرين يا أخا العرب : إن الله قد غفر لك بحسن هذا السؤال .

وذكر علماء المناسك ايضاً أن استقبال قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وقت الزيارة والدعاء أفضل من استقبال القبلة. قال العلامة المحقق الكمال بن الهمام إن استقبال القبر الشريف أفضل من استقبال القبلة. وأما ما نقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أن استقبال القبلة أفضل فمردود بما رواه الإمام نفسه في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : من السنة استقبال القبر المكرم وجعل الظهر للقبلة، وسبقه إلى ذلك ابن جماعة، فنقل استحباب استقبال القبر الشريف عن الإمام أبي حنيفة أيضاً، ورد قول الكرماني إنه يستقبل القبلة ، وقال ليس بشيء .

قال في الجوهر المنظم : ويستدل لاستقبال القبر أيضاً بأنا متفقون على أنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره يعلم بزائره ، وهو صلى الله عليه وسلم لو كان حياً لم يسع الزائر إلا استقباله واستدبار القبلة، فكذا يكون الأمر حين

(17) سورة النساء : الآية 64 .

زيارته فى قبره الشريف صلى الله عليه وسلم. وإذا اتفقنا فى المدرس من العلماء بالمسجد الحرام المستقبل للقبلة أن الطلبة يستقبلونه ويستدبرون الكعبة، فما بالك به صلى الله عليه وسلم ، فهذا أولى بذلك قطعاً. وقد تقدم قول الإمام مالك رحمه الله للمنصور : ولم تصرف وجهك عنه ، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى ؟ بل استقبله واستشفع به .

قال العلامة الزرقانى فى شرح المواهب، إن كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلاً له مستدبراً للقبلة ؛ ثم نقل عن مذهب الإمام أبى حنيفة والشافعى رحمهما الله تعالى والجمهور مثل ذلك . وأما مذهب الإمام أحمد ففيه اختلاف بين علماء مذهبه، والراجح عند المحققين منهم أنه يستقبل القبر الشريف كبقية المذاهب، وكذا القول فى التوسل، فإن المرجح عند المحققين منهم جوازه، بل استحبابه لصحة الأحاديث الدالة على ذلك، فيكون المرجح عند الحنابلة موافقاً لما عليه أهل المذاهب الثلاثة.

وأما ما ذكره الآلوسى فى تفسيره، من أن بعضهم نقل عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أنه منع التوسل فهو غير صحيح، إذ لم ينقله عن الإمام أحد من اهل مذهبه، بل كتبهم طافحة باستحباب التوسل ونقل المخالف غير معتبر ، فإياك أن تغتر بذلك . وقد بسط الإمام السبكى نصوص المذاهب الأربعة فى استحباب التوسل فى كتابه : المسمى (شفاء السقام فى زيارة خير الأنام) فراجعه إن شئت .

وفى المواهب اللدنية للإمام القسطلانى : وقف أعرابى على قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم إنك أمرت بعتق العبيد وهذا حبيبك وأنا عبدك فأعتقنى من النار على قبر حبيبك فهتف به هاتف : يا هذا تسأل العتق لك وحدك ؟ هلا سألت العتق لجميع الخلق: يعنى من المؤمنين ؛ اذهب قد أعتقتك ، ثم أنشد القسطلانى أحد البيتين المشهورين ، وشارحه الزرقانى فى البيت الآخر ، وهما :

عن الملوك إذا شابت عبيدهم   فى رقهم أعتقوهم عتق أحرار
وأنت يا سيدى أولى بذا كرما   قد شبت فى الرق فأعتقنى من النار

ثم قال فى المواهب : وعن الحسن البصرى قال : وقف حاتم الأصم على قبره صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رب إنا زرنا قبر نبيك صلى الله عليه وسلم فلا تردنا خائبين ، فنودى : يا هذا ، ما أذنا لك فى زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك فارجع أنت ومن معك من الزوار مغفورا لكم .

وقال ابن أبي فديك : سمعت بعض من أدركت من العلماء والصلحاء يقول : بلغنا أن من وقف عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم قال هذه الآية (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقال صلى الله عليك يا محمد حتى يقولها سبعين مرة ، ناداه ملك : صلى الله عليك يا فلان ، ولم تسقط له حاجة .

قال الشيخ زين الدين المراغى وغيره : الأولى أن يقول : صلى الله عليك يا رسول الله بدل قوله : يا محمد للنهى عن ندائه باسمه حياً وميتاً، صلى الله عليه وسلم ، وابن أبي فديك من أتباع التابعين ، وكان من الأئمة الثقات المشهورين وهو من المروى عنهم فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنن. قال الزرقانى فى شرح المواهب : اسمه محمد بن إسماعيل بن مسلم الديلمى. مات سنة مائتين على الصحيح ، وهذا الذى نقله فى المواهب عن ابن أبي فديك رواه عنه البيهقى.

وفى شرح المواهب للزرقانى أن الداعى إذا قال : اللهم إنى استشفع إليك بنبيك، يا نبى الرحمة اشفع لى عند ربك، استجيب له .

فقد اتضح لك من هذه النصوص المروية عن سلف الأمة وخلفها أن التوسل به صلى الله عليه وسلم وطلب الشفاعة منه وزيارته ثابتة عنهم ، وأنها من أعظم القربات ، وأن التوسل به واقع قبل خلقه وبعد خلقه فى حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، ويكون أيضاً بعد البعث فى عرصات القيامة ، وأحاديث التوسل به يوم القيامة فى الصحيحين وغيرهما فلا حاجه إلى الإطالة بذكرها.

فبطل بما ذكرناه من النصوص جميع ما ابتدعه محمد بن عبد الوهاب وما افتراه ولبس به على المؤمنين . قال فى المواهب : ويرحم الله ابن جابر حيث قال :

به قد أجاب الله آدم إذ دعا ... ونجى فى بطن السفينة نوح

وما ضرت النار الخليل لنوره ... ومن أجله نال الفداء ذبيح

ثم قال في المواهب : فالتوسل به صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته أكثر من أن يحصى أو يدرك باستقصاء . قال : وفي كتاب (مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام) للشيخ أبي عبد الله بن النعمان طرف من ذلك ، ثم ذكر في المواهب كثيرا من البركات التي حصلت له ببركة توسله بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه "أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي به ، وأنشد أبياتا في آخرها:

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل

فلم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم هذا البيت، بل قال أنس لما أنشده الأعرابي الأبيات قام يجر رداءه حتى رقي المنبر فخطب ودعا لهم ، فلم يزل يدعو حتى أمطرت السماء وهو على المنبر" ، وفي صحيح البخاري "أنه لما جاء الأعرابي وشكا للنبي صلى الله عليه وسلم القحط، فدعا الله فانجابت السحاب بالمطر قال صلى الله عليه وسلم لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه، من ينشدنا قوله ؟ فقال علي رضي الله عنه يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فتهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر إنشاد البيت ولا قوله "يستسقى الغمام بوجهه" ولو كان في ذلك إشراك لأنكره ولم يطلب إنشاده،وكان سبب إنشاء البيت من أبي طالب من جملة قصيدة مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشا أصابهم قحط فاستسقى بهم أبو طالب وتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فاغدودق عليهم السحاب بالمطر، وكان ذلك قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فأنشأ أبو طالب تلك القصيدة، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به. فلولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن. قال في الجوهر المنظم : فإذا كان له صلى الله عليه وسلم هذا الفضل والخصوصية أفلا يتوسل به ؟ وذكر القسطلاني في شرحه

على البخارى عن كعب الأحبار أن بنى إسرائيل كانوا إذا قحطـــوا استســقوا بأهل بيت نبيهم. فعلم بذلك أن التوسل مشروع حق فى الأمم السابقة.

وقال السيد السمهودى فى خلاصة الوفا : إن العادة جرت أن من توســـل عند شخص بمن له قدر عنده يكرمه لأجله ويقضى حاجته، وقد يتوجه بمن لـــه جاه إلى من هو أعلى منه ، وإذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة كما فى صحيـح البخارى فى حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار فأطبق عليهم فتوسل كل واحـــد منهم إلى الله تعالى بأرجى عمل له فانفرجت الصخور التى سدت الغار عليـــهم، فالتوسل به صلى الله عليه وسلم أحق وأولى لما فيه من النبوة والفضائل ســـواء كان ذلك فى حياته أو بعد وفاته، فالمؤمن إذا توسل به إنما يريد نبوته التى جمعت الكمالات.

وهؤلاء المانعون للتوسل يقولون : يجوز التوسل بالأعمال الصالحة مع كونهـا أعراضا، فالذوات الفاضلة أولى، فإن عمر رضى الله عنه توسل بالعباس رضـــى الله عنه ، وأيضا لو سلمنا لهم ذلك فنقول لهم إذا جـــاز التوســـل بالأعمـــال الصالحة فما المانع من جوازها بالنبى صلى الله عليه وسلم باعتبار ما قام به مـــن النبوة والرسالة والكمالات التى فاقت كل كمال وعظمت على كل عمل صالح فى الحال والمآل مع ما ثبت من الأحاديث الدالة على ذلك وعلى الإذن فيـــه ، ومثله سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وكـــذا الأولياء وعباد الله الصالحون لما فيهم من الطهارة القدسية ومحبـــة رب البريـــة وحيازة أعلى مراتب الطاعة واليقين والمعرفة لله رب العالمين ، وذلك كله ســـبب كونهم من عباد الله المقربين فيقضى سبحانه وتعالى بالتوسل بهم حوائج المؤمنـــين. وينبغى أن يكون ذلك التوسل مع الأدب الكامل واجتناب الألفاظ الموهمة تأثـــير غير الله تعالى .

ومن أدلة جواز التوسل : قصة سواد بن قارب رضى الله عنه الـــتى رواهـــا الطبرانى فى الكبير، وفيها أن سواد بن قارب أنشد رسول الله صلـــى الله عليـــه وسلم قصيدته التى فيها :

فاشــهد أن الله لا رب غـــيره وأنك مأمون على كـــل غــائب
وأنك أدنى المرســـلين وســيلة على الله يا ابن الأكرمين الأطـايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرســـل وإن كان فيما فيه شيب الذوائـب
وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلا عن سواد بـــن قــارب

فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله أدنى المرسلين وسـيلة ولا قوله وكن لي شفيعا. وكذا من أدلة التوسل مرثية صفية رضى الله عنـــها عمـــة النبى صلى الله عليه وسلم، فإنها رثته بعد وفاته صلى الله عليه وســـلم بأبيـــات قالت فيها :

ألا يا رسول الله أنت رجاؤنـــا وكنت بنا بـــرا ولم تــك جافيـــا

ففيها النداء مع قولها : أنت رجاؤنا ، وسمع تلك المرثية الصحابة رضـــى الله عنهم ولم ينكر عليها أحد قولها : يا رسول الله أنت رجاؤنا .

قال العلامة ابن حجر فى كتابه المسمى (بالخيرات الحسان فى مناقب الإمـــام أبى حنيفة النعمان) فى الفصل الخامس والعشرين: إن الإمام الشافعى أيام هــــو ببغداد كان يتوسل بالإمام أبى حنيفة رضى الله عنه يجـــيء إلى ضريحـــه يـــزوره فيسلم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به فى قضاء حاجاته . وقد ثبت توسل الإمـــام أحمد بالشافعى رضى الله عنهما حتى تعجب ابنه عبد الله ابن الإمام أحمـــد مـــن ذلك ، فقال له الإمام أحمد إن الشافعى كالشمس للناس وكالعافية للبدن.

ولما بلغ الإمام الشافعى أن أهل المغرب يتوسلون إلى الله تعالى بالإمام مالك لم ينكر عليهم ، وقال الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : من كانت لـــه إلى الله تعالى حاجة وأراد قضاءها فليتوسل إلى الله تعالى بالإمام الغـــزالى ، وذكـــر العلامة ابن حجر فى كتابه المسمى : (بالصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقـة) أن الإمام الشافعى رضى الله عنه توسل بأهل البيت النبوى حيث قال :

آل النـــــبى ذريعـــــــق وهـــــم إليــــــه وســـــيلق
أرجـــو بهـــم أعطـــى غـــدا بيــــد اليمــــين صحيفـــــق

وذكر العلامة السيد طاهر بن محمد هاشم باعلوى فى كتابه : المسمى (مجمع الأحباب) فى ترجمة الإمام أبى عيسى الترمذى صاحب السنن، أنه رأى فى المنام رب العزة فسأله عما يحفظ عليه الإيمان ويتوفاه عليه ؟ قال فقال لى قل بعد صلاة ركعتى الفجر قبل صلاة فرض الصبح: إلهى بحرمة الحسن وأخيه وجده وبنيه وأمه وأبيه نجنى من الغم الذى أنا فيه يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أسألك أن تحيى قلبى بنور معرفتك يا الله يا الله يا الله يا أرحم الراحمين.

فكان الإمام الترمذى يقول ذلك دائما بعد صلاة الصبح ويأمر أصحابه به ويحثهم على المواظبة عليه، فلو كان التوسل ممنوعا لما فعله هذا الإمام ولا أمر بفعله والمواظبة عليه، وهو إمام حجة يقتدى به ، بل هذا الأمر أعنى التوسل لم ينكره قط أحد من السلف والخلف حتى جاء هؤلاء المنكرون . وفى الأذكار للنووى "أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر ثلاثا : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ومحمد صلى الله عليه وسلم أجرنى من النار" .

قال فى شرح الأذكار خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم فى قبول الدعاء، وإلا فهو سبحانه تعالى رب جميع المخلوقات، فافهم ذلك أنه من التوسل المشروع . وفى شرح حزب البحر للإمام زروق بعد ذكر كثير من الأخيار : اللهم إنا نتوسل إليك بهم فإنهم أحبوك وما أحبوك حتى أحببتهم فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك فتمم لنا ذلك مع العافية الكاملة الشاملة حتى نلقاك يا أرحم الراحمين . ولبعض العارفين دعاء مشتمل على قوله : اللهم رب الكعبة وبانيها وفاطمة وأبيها وبعلها وبنيها نور بصرى وبصيرتى وسرى وسريرتى، وقد جرب هذا الدعاء لتنوير البصر.

وأن من ذكره عند الاكتحال نور الله بصره، وذلك من الأسباب العادية، وهى لا تأثير لها، والمؤثر هو الله وحده لا شريك له. فكما أن الله تعالى جعل الطعام والشراب سببين للشبع والرى لا تاثير لهما، والمؤثر هو الله وحده تعالى، وكما جعل الطاعة سبباً للسعادة ونيل الدرجات جعل أيضاً التوسل بالأخيار الذين عظمهم الله وأمر بتعظيمهم سبباً لقضاء الحاجات، فليس فى ذلك كفر ولا

إشراك . ومن تتبع أذكار السلف والخلف وأدعيتهم وأورادهم وجدها كلها مشتملة على التوسل ولم ينكر ذلك أحد عليهم حتى جاء هؤلاء المنكرون.

ولو تتبعنا ما وقع من أكابر الأمة من التوسل لامتلأت بذلك الصحف وفيما ذكر كفاية. وإنما أطلت في ذلك ليتضح الأمر للمتشكك فيه غاية الاتضاح ، لأن كثيراً من أتباع محمد بن عبد الوهاب يلقون إلى كثير من الناس شبهات يستميلونهم بها إلى اعتقادهم الباطل. فعسى أن يقف على هذه النصوص من أراد الله حفظه من قبول شبهاتهم فلا يلتفت إليها ويقيم عليهم الحجة في إبطالها.

قال في الجوهر المنظم : ولا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو التشفع أو الاستعانة أو التوجه ، لان التوجه من الجاه ، وهو علو المنزلة، وقد يتوسل بذى الجاه إلى من هو أعلى منه جاهاً، والاستغاثة طلب الغوث، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه. فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك ولا يُقصد بهما أحد منهم سواه.

فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه. نسأل الله العافية. والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فهو واسطة بينه وبين المستغيث، فهو سبحانه وتعالى مستغاث به حقيقة، والغوث منه خلقاً وإيجاداً، والنبي صلى الله عليه وسلم مستغاث به مجازاً والغوث منه تسبباً وكسباً، فهو على حد قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[18] أى وما رميت خلقاً وإيجاداً إذ رميت تسبباً وكسباً ولكن الله رمى خلقاً وإيجاداً ، وكذا قوله تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[19] وقوله صلى الله عليه وسلم [ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم] وكثيراً ما تجيء السنة لبيان الحقيقة ويجيء القرآن الكريم بإضافة الفعل إلى مكتسبه، ويسند إليه مجازاً كقوله صلى الله عليه وسلم "لن يدخل أحد الجنة بعمله" مع قوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فالآية بيان للسبب العادى الذى لا تأثير له، والحديث بيان للسبب الحقيقى وهو

---

(18) سورة الأنفال : الآية 17 .

(19) سورة الأنفال : الآية 17 .

فضل الله تعالى .

وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث باعتبار الكسب أمر معلوم لا شك فيه لغة ولا شرعا ، فإذا قلت أغثني يا الله تريد الإسناد الحقيقي باعتبار الخلق والإيجاد، وإذا قلت أغثني يا رسول الله تريد الإسناد المجازى باعتبار الكسب والتوسط والتسبب بالشفاعة . ولو تتبعت كلام العلماء والأئمة لوجدت شيئا كثيرا من ذلك ، ومنه ما مر فى صحيح البخارى فى مبحث الحشر ووقوف الناس للحساب يوم القيامة "بينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم موسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم".

فتأمل تعبيره صلى الله عليه وسلم بقوله : استغاثوا بآدم، فإن الإسناد مجازى إذ المستغاث به حقيقة هو الله تعالى، وصح عنه صلى الله عليه وسلم لمن أراد عونا أن يقول " يا عباد الله أعينونى " وفى رواية "أغيثونى" وجاء فى قصة قارون لما خسف به أنه استغاث بموسى عليه السلام فلم يغثه وصار يقول يا أرض خذيه فعاتبه الله حيث لم يغثه وقال له استغاث بك فلم تغثه ولو استغاث بي لأغثته، فإسناد الإغاثة إلى الله تعالى إسناد حقيقى، وعلى موسى عليه السلام مجازى.

وقد يكون معنى التوسل به صلى الله عليه وسلم طلب الدعاء منه، إذ هو حى صلى الله عليه وسلم يعلم سؤال من يسأله ، وقد تقدم حديث بلال بن الحارث رضى الله عنه المذكور فيه أنه جاء إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله استسق لأمتك ، أى ادع الله لهم، فعلم أنه صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدعاء بحصول الحاجات كما كان يطلب منه فى حياته لعلمه بسؤال من يسأله مع قدرته على التسبب فى حصول ما سئل فيه بسؤاله ودعائه وشفاعته إلى ربه عز وجل ، وأنه صلى الله عليه وسلم يتوسل به فى كل خير قبل بروزه لهذا العالم وبعده فى حياته وبعد وفاته.

وكذا فى عرصات القيامة فيشفع على ربه . وكل هذا مما تواترت به الأخبار وقام به الإجماع قبل ظهور المانعين منه ، فهو صلى الله عليه وسلم له الجاه الوسيع والقدر المنيع عند سيده ومولاه المنعم عليه بما حباه وأولاه.

وأما تخيل بعض المحرومين أن منع التوسل والزيارة من المحافظة على التوحيد

وأن فعل ذلك مما يؤدى إلى الشرك فهو تخيل فاسد باطل ، فالتوسل والزيارة إذا فعل كل منهما مع المحافظة على آداب الشريعة الغراء لا يؤدى إلى محذور البتة، والقائل بمنع ذلك سداً للذريعة متقول على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وكأن هؤلاء المانعين للتوسل والزيارة يعتقدون أنه لا يجوز تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم. فحيثما صدر من أحد تعظيم له صلى الله عليه وسلم حكموا على فاعله بالكفر والإشراك.

وليس الأمر كما يقولون، فإن الله تعالى عظم النبي صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم بأعلى أنواع التعظيم، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه، نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية، ورحم الله الشيخ الأبوصيرى حيث قال :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فليس فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات ، وهكذا كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكالملائكة والصديقين والشهداء الصالحين. قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[20] وقال تعالى ﴿مَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[21] ومن ذلك الكعبة المعظمة والحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام فإنها أحجار وأمرنا الله تعالى بتعظيمها بالطواف بالبيت ومس الركن اليمانى، وتقبيل الحجر الأسود ، وبالصلاة خلف المقام ، وبالوقوف للدعاء عند المستجار وباب الكعبة والملتزم ، ونحن فى ذلك كله لم نعبد إلا الله تعالى ولم نعتقد تأثيراً لغيره ولا نفعاً ولا ضراً، فلا يثبت شيء من ذلك لأحد سوى الله تعالى .

والحاصل أن هنا أمرين : أحدهما : وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ورفع رتبته عن سائر الخلق ، والثانى : إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك

---

(20) سورة الحج : الآية 32 .

(21) سورة الحج : الآية 30 .

وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه، فمن اعتقد فى مخلوق مشاركة البارى سبحانه وتعالى فى شيء من ذلك فقد أشرك كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها العبادة، ومن قصر بالرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر .

وأما من بالغ فى تعظيمه بأنواع التعظيم ولم يصفه بشيء من صفات البارى عز وجل فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعاً، وذلك هو القول الذى لا إفراط فيه ولا تفريط، وإذا وجد فى كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله تعالى يجب حمله على المجاز العقلى ولا سبيل إلى تكفيرهم، إذ المجاز العقلى مستعمل فى الكتاب والسنة، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾(22) فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلى لأنها سبب فى الزيادة ، والذى يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده ، وقوله تعالى ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ (23) فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلى، لأن اليوم محل لجعلهم شيباً، فالجعل المذكور واقع فى اليوم ، والجاعل حقيقة هو الله تعالى وقوله تعالى ﴿وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾.(24)

فإسناد الضلال إلى الأصنام مجاز عقلى أنها سبب فى حصول الإضلال ، والهادى والمضل هو الله تعالى وحده ، وقوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾ (25) فإسناد البناء إلى هامان مجاز عقلى لأنه سبب فهو آمر يأمر ولا يبنى بنفسه، والبانى إنما هو الفعلة.

وأما الأحاديث ففيها شيء كثير يعرفه من وقف عليها وكان ممن يعرف الفرق بين الإسناد الحقيقى والمجازى فلا حاجه إلى الإطالة بنقلها، وقال العلماء : إن صدور ذلك الإسناد من موحد كاف فى جعله إسناداً مجازياً لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده، فهو الخالق للعباد

---

(22) سورة الأنفال : الآية 2 .

(23) سورة المزمل : الآية 17 .

(24) سورة نوح : الآية 23 .

(25) سورة غافر : الآية 36 .

وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا لميت وهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض ، بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك، وأما الفرق بين الحي والميت مع اعتقاد أن الحي يخلق أفعال نفسه فهو اعتقاد المعتزلة.

فلو كان هؤلاء، الذين يريدون المحافظة على التوحيد بزعمهم، وأن مرادهم منع الألفاظ الموهمة وسد الذريعة، يقتصرون على منع العامة عن الألفاظ الموهمة تأثير غير الله تعالى تأدباً، ومع هذا فإذا صدرت منهم تحمل على المجاز العقلي، ويجيزون لهم التوسل مع المحافظة على الأدب لكان لكلامهم وجه. وأما المنع منه بالكلية فهو مصادم للأحاديث الصحيحة ولفعل السلف والخلف.

فعليك باتباع الجمهور والسواد الأعظم. قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(26) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه]. وقد ذكر العلامة ابن الجوزي في كتابه المسمى : (تلبيس أبليس) أحاديث كثيرة في التحذير من مفارقه السواد الأعظم : منها حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب في الجابية فقال [من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد] وفي حديث عرفجة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [يد الله على الجماعة والشيطان مع من يخالف الجماعة] وحديث أسامة بن شريك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [يد الله على الجماعة، فإذا شذ الشاذ منهم اختطفته الشياطين كما يختطف الذئب الشاة من الغنم].

وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة الشاذة القاصية والنائية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة العامة والمسجد] وحديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [اثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من اثنين ، وأربعة خير من الثلاثة فعليكم بالجماعة فإن الله تعالى لن يجمع أمتي إلا على هدى].

---

(26) سورة النساء : الآية 115 .

فهؤلاء المنكرون للتوسل والزيارة فارقوا الجماعة والسواد الأعظم وعمدوا إلى آيات كثيرة من آيات القرآن التى نزلت فى المشركين ، حملوها على المؤمنين الذين تقع منهم الزيارة والتوسل ، وتوصلوا بذلك إلى تكفير أكثر الأمة من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد وعوام الخلق.

وقالوا : إنهم مثل أولئك المشركين الذين قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[27] وقد علمت أن المشركين اعتقدوا ألوهية غير الله تعالى واستحقاقه العبادة. وأما المؤمنون فلم يعتقد أحد منهم هذا الاعتقاد فكيف يجعلونهم مثل أولئك المشركين، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وشبهة هؤلاء الخوارج فى المنع من طلب الشفاعة منه صلى الله عليه وسلم أنهم يقولون إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[28] وقال تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[29] فالطالب للشفاعة من أين يعلم حصول الإذن للنبى صلى الله عليه وسلم فى أنه يشفع له حتى يطلب الشفاعة منه ، ومن أين يعلم أنه ممن ارتضى حتى يطلب الشفاعة منهم. واحتجاجهم هذا مردود بالأحاديث الصحيحة الصريحة فى حصول الإذن له صلى الله عليه وسلم فى أنه يشفع لمن قال بعد الأذان والإقامة: اللهم رب هذه الدعوة التامة إلى آخر الدعاء المشهور ولمن صلى على النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، ولمن زار قبره صلى الله عليه وسلم.

بل جاءت أحاديث كثيرة صريحة فى شفاعته صلى الله عليه وسلم لعصاة أمته كقوله صلى الله عليه وسلم [شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى] فكل من مات مؤمناً فإنه يدخل فى شفاعته صلى الله عليه وسلم، فهى ثابتة لجميع المؤمنين ومأذون له صلى الله عليه وسلم فيها، فالطالب للشفاعة كأنه يتوسل إلى الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم على الله تعالى أن يحفظ عليه الإيمان حتى يتوفاه

---

(27) سورة الزمر: الآية 3 .

(28) سورة البقرة : الآية 255 .

(29) سورة الأنبياء : الآية 48 .

الله عليه، فيشفع فيه نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا حاجة إلى التطويل ببسط الدلائل فى ذلك مع وضوح الأمر إلا لمن عميت بصيرته.

وأما شبهتهم فى المنع من النداء ، فقالوا : إن النداء والخطاب للجمادات والغائبين والأموات من الشرك الأكبر الذى يباح به الدم والمال، ولا مستند لهم فى ذلك، بل الأحاديث الصحيحة الصريحة فى بطلان قولهم هذا، وزعموا أن النداء للأموات والغائبين والجمادات يسمى دعاء وأن الدعاء عبادة، بل الدعاء مخ العبادة، أو حملوا كثيرا من الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين على الموحدين، وقد تقدم ذكر كثير من الآيات، وهذا كله منهم تلبيس فى الدين وتضليل لأكثر الموحدين، فإنه وإن كان النداء قد يسمى دعاء كما فى قوله تعالى ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾[30] لكن ليس كل نداء عبادة ، ولو كان كل نداء عبادة لشمل ذلك نداء الأحياء والأموات، فيكون كل نداء ممنوعاً مطلقاً، وليس الأمر كذلك، وإنما النداء الذى يكون عبادة هو نداء من يعتقدون ألوهيته واستحقاقه العبادة فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه.

فالذى يوقع فى الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله تعالى واعتقاد التأثير لغير الله تعالى. وأما مجرد النداء لمن لا يعتقدون ألوهيته ولا تأثيره فإنه ليس عبادة، ولو كان لميت أو غائب أو جماد، وذلك كله وارد فى كثير من الأحاديث الصحيحة والآثار الصريحة، فقولهم إن نداء الميت والجماد والغائب دعاء وكل دعاء عبادة غير صحيح على إطلاقه وعمومه. ولو كان كل نداء عبادة لامتنع نداء الحى والميت فإنهما مستويان فى أن كلا منهما لا تأثير له فى شيء، ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى ولا تأثير لأحد سواه، فالدعاء الذى هو مخ العبادة هو الرغبة للإله والخضوع بين يديه.

وسأذكر لك كثيراً من الأحاديث والآثار التى جاء فيها النداء والخطاب للأموات والغائبين والجمادات وإن تقدم كثير من ذلك فلا بأس بإعادته، فمنها حديث الضرير الذى رواه عثمان بن حنيف رضى الله عنه، فإن فيه [يا محمد إنى

---

(30) سورة النور : الآية 63 .

أتوجه بك إلى ربك] وتقدم أن الصحابة رضى الله عنهم استعملوا ذلك بعد وفاته صلى الله عليه وسلم. وحديث بلال بن الحارث رضى الله عنه فإن فيه [إنه جاء إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله استسق لأمتك] ففيه النداء له بعد وفاته والخطاب بالطلب منه أن يستسقى لأمته.

والأحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى زيارة القبور فى كثير منها النداء والخطاب للأموات كقوله [السلام عليكم يا أهل القبور ، السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون] ففيها نداء وخطاب، وهى أحاديث كثيرة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها، وتقدم أن السلف والخلف من أهل المذاهب الأربعة استحبوا للزائر أن يقول تجاه القبر الشريف : [يا رسول الله إنى جئتك مستغفراً من ذنبى مستشفعاً بك إلى ربى]، وصح عن بلال بن الحارث رضى الله عنه أنه ذبح شاة عام القحط المسمى عام الرمادة فوجدها هزيلة فصار يقول : وامحمداه وامحمداه ، وصح أيضاً أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما قاتلوا مسيلمة الكذاب كان شعارهم : وامحمداه وامحمداه ، وفى الشفاء للقاضى عياض : أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما خدرت رجله مرة، فقيل له : اذكر أحب الناس إليك ، فقال وامحمداه، فانطلقت رجله. وجاء الخطاب وصورة النداء فى التشهد الذى يأتى به المسلم فى كل صلاة وعلمه النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه، فإن فيه : السلام عليك أيها النبى، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل أرضاً قال : [يا أرض ربى وربك الله] ففيه الخطاب والنداء للجماد ، وذكر الفقهاء فى آداب السفر : إن المسافر إذا انفلتت دابته بأرض ليس بها أنيس، فليقل : يا عباد الله احبسوا ، وإذا أضل شيئاً أو أراد عوناً فليقل : يا عباد الله أعينونى أو أغيثونى فإن بها عباداً لا تراهم.

واستدل الفقهاء على ذلك بما رواه ابن السنى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادى يا عباد الله احبسوا فإن لله عباداً يجيبونه] ففيه نداء وطلب نفع: أى التسبب فى ذلك من عباد الله الذين لم يشاهدهم ؛ وفى حديث آخر

رواه الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال [إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً، وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينوني، وفي رواية أغيثوني فإن لله عباداً لا تروهم].

قال العلامة ابن حجر في حاشية (إيضاح المناسك) وهو مجرب كما قاله الراوي، وروى أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال [يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن شر ساكن البلد ووالد وما ولد].

وذكر الفقهاء في آداب السفر أنه يسن للمسافر الإتيان بهذا الدعاء عند إقبال الليل وفيه النداء والخطاب للجماد؛ وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما والدارمي عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال [ربي وربك الله] ففيه خطاب للجماد.

وصح أنه "لما توفي صلى الله عليه وسلم أقبل أبو بكر رضي الله عنه حين بلغه الخبر، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه؛ ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال : بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك" .

وفي رواية للإمام أحمد [فقبل جبهته، ثم قال وانبياه، ثم قبله ثلاثاً وقال واصفياه ثم قبله ثلاثاً وقال واخليلاه" ففي ذلك نداء خطاب له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته. ولما تحقق عمر رضي الله عنه من وفاته صلى الله عليه وسلم بقول أبي بكر رضي الله عنه، قال وهو يبكي "بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه، فلما كثروا واتخذت منبراً لتسمعهم حنّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم، فقال

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون : (ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد اتبعك فى قصر عمرك من لم يتبع نوحا فى كبر سنه وطول عمره].

فانظر إلى هذه الألفاظ التى صدرت من عمر رضى الله عنه. وقد تعدد فيها النداء له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، وقد رواها كثير من أئمة الحديث، وذكرها القاضى عياض فى الشفاء والغزالى فى الإحياء والقسطلانى فى المواهب اللدنية، وابن الحاج فى المدخل فيبطل بها وبغيرها قول المانعين للنداء القائلين إن كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة.

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه] وفى رواية [إلينا جبريل نعاه] والنعى هو الإخبار بالموت، وقد يكون الإخبار للعالم بموته تأسفاً على فقده، فكل من الروايتين صحيح فى المعنى، ففى هذا الحديث أيضاً نداؤه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، وفى المواهب : ورثته عمته صفية رضى الله عنها بمراث كثيرة، قالت فى مطلع قصيدة منها :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا براً ولم تك جافيا

ففى البيت نداؤه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكره عليها أحد من الصحابة رضى الله عنهم مع حضورهم وسماعهم له، ومما جاء من النداء للميت التلقين به بعد دفنه وقد ذكره كثير من الفقهاء واستندوا فى ذلك إلى حديث الطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه، واعتضد بشواهد. وصورته أن يقول للميت عند قبره بعد دفنه "يا عبد الله ابن أمة الله اذكر العهد الذى خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، قل رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم

نبيا، وبالكعبة قبلة وبالمسلمين إخوانا، ربي الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم".

ففي التلقين النداء والخطاب للميت، وحديث نداء النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش المقتولين ببدر بعد إلقائهم في القليب مشهور، رواه البخاري وأصحاب السنن، وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ويقول [أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟].

وأما ما جاء من الآثار عن الأئمة الأحبار والعلماء الأخيار والأولياء الكبار مما يدل على جواز ذلك النداء والخطاب فشيء كثير تنقضي دون نقله الأعمار، ومضى على ذلك القرون والأعصار وما وقع منهم إنكار، فكيف يجوز الإقدام على تكفير المسلمين بشيء قام على ثبوته البراهين، وفي الحديث الصحيح [من قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه] قال العلماء ترك قتل ألف كافر أولى من إراقة دم امرئ مسلم. فيجب الاحتياط في ذلك فلا يحكم بالكفر على أحد من أهل القبلة إلا بواضح قاطع للإسلام.

وممن رد على محمد عبد الوهاب أحد أشياخه ، وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردي صاحب حواشي شرح مختصر بافضل، ومن جملة ما قاله في الرسالة التي رد بها عليه: يا ابن عبد الوهاب سلام على من اتبع الهدى فإني أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين ، فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله تعالى فعرفه الصواب وأبن له الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله، فإن أبى فكفره حينئذ بخصوصه ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين، وأنت شاذ عن السواد الأعظم، فنسبة الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين. قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(31) "وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية" أ هـ.

والحاصل أن الذين اعتنوا بالرد عليه خلائق لا يحصون من مشارق الأرض ومغاربها من أرباب المذاهب الأربعة في كتب مبسوطة ومختصرة، وبعضهم التزم

---

(31) سورة النساء : الآية 115 .

الرد عليه بنصوص مذهب الإمام أحمد، ليبين له أنه كاذب ملبس في انتسابه لمذهب الإمام أحمد رضي الله عنه.

وأما زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقد فعلها الصحابة، ومن بعدهم من سلف الأمة وخلفها وانعقد الإجماع على استحبابها وجاء في فضلها والترغيب فيها أحاديث كثيرة: منها ما رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [من زار قبري كنت له شفيعاً وشهيدا] وهذه شفاعة خاصة للزائر غير شفاعته صلى الله عليه وسلم للعصاة، وروى الدارقطني وابن السكن وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما [من زار قبري وجبت له شفاعتي]. وفي رواية "من جاءني زائراً لا تعمله حاجة غير زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة". وفي رواية لابن منده [من زارني في مسجدي بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي]. وفي رواية لابن عدي [من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني].

والمراد من الجفاء غلظ الطبع والبعد والإعراض عن المحبوب، والمراد أنه فعل فعل الجافي، لا أنه جفا جفاء حقيقياً، لأن ذلك أذى ولا يجوز أذاه صلى الله عليه وسلم. وفي رواية للدار قطني [من زارني متعمداً كان في جواري يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة]. زاد في رواية [ومن سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة]، وفي رواية رواها ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيدا، أو قال شفيعا].

والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة لا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرها مع إجماع السلف والخلف على استحبابها حتى ظهر المنكرون لها المانعون منها. وفي هذا القدر كفاية ومقنع، لمن كان بمرأى من التوفيق ومسمع.

وبمجموع ما ذكرناه يبطل جميع ما ابتدعه محمد بن عبد الوهاب ولبس به على المؤمنين واستباح هو ومن تبعه دماءهم وأموالهم، أ هـ كلام السيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى .

الفصل الثالث
عبارات علماء المذاهب

في الرد على ابن تيمية ، والكلام على بعض كتبه ومخالفته أهل السنة في بعض المسائل المهمة ، ومنها اعتقاد الجهة في جانب الله تعالى وتقدس.

فممن عاصره الإمام صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن المرحل الشافعي وقد ناظره، ومنهم الإمام أبو حيان وكان صديقاً له ، فلما أطلع على بدعه رفضه رفضاً باتاً وحذر الناس منه.

ومنهم الإمام عز الدين بن جماعة رد عليه وشنع عليه كثيراً، ولم أطلع على كتب هؤلاء الثلاثة وإنما ذكرهم ابن حجر وغيره.

ومنهم الإمام كمال الدين الزملكاني الشافعي المتوفى سنة 727 هـ. قال ابن الوردي في تاريخه كان غزير العلم كثير الفنون مسدد الفتاوى دقيق الذهن وذكر له في كشف الظنون (كتاب الدرة المضية في الرد على ابن تيمية).

وقد ناظره في مسائله التي شذ بها عن المذاهب الأربعة ومن أشنعها مسألة منعه شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين ولا سيما سيد المرسلين والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبهم إلى رب العالمين، ولم أطلع على كتابه هذا ، وإنما اطلعت على قصيدة بليغة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم تعرض فيها للرد على هذه الفرقة المفتونة فرقة ابن تيمية بقوله :

يا صاحب الجاه عند الله خالقه	ما رد جاهك إلا كل أفاك
أنت الوجيه على رغم العدا أبدا	أنت الشفيع لفتاك ونساك
يا فرقة الزيغ لا لقيت صالحة	ولا شفى الله يوماً قلب مرضاك
لا حظيت بجاه المصطفى أبدا	ومن أعانك في الدنيا وولاك

ومنهم الإمام الكبير الشهير تقي الدين السبكي الشافعي . قال رحمه الله تعالى في كتابه (شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام) :

اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذى دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الإيمان ولا سمع به فى زمن من الأزمان حتى جاء ابن تيمية، فتكلم فى ذلك بكلام يلبس فيه على الضعفاء الأغمار، وابتدع ما لم يسبق إليه فى سائر الأعصار. وحسبك أن إنكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله وصار به بين أهل الإسلام مثله. وقد وقفت له على كلام طويل فى ذلك رأيت من الرأى القويم أن أميل عنه إلى الصراط المستقيم ولا أتبعه بالنقض والإبطال، فإن دأب العلماء القاصدين لإيضاح الدين وإرشاد المسلمين تقريب المعنى إلى أفهامهم وتحقيق مراده وبيان حكمه. ورأيت كلام هذا الشخص بالضد من ذلك فالوجه الإضراب عنه، انتهى. وكتابه هذا (شفاء السقام) هو الذى قال فيه الإمام القسطلانى فى المواهب اللدنية فى مبحث زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ما نصه : وللشيخ تقى الدين بن تيمية هنا كلام شنيع عجيب يتضمن منع شد الرحال للزيارة النبوية المحمدية، وأنه ليس من القرب بل بضد ذلك، ورد عليه الشيخ تقى الدين السبكى فى (شفاء السقام) فشفى صدور المؤمنين أ هـ .

وقد قال فى خطبته وضمنت هذا الكتاب الرد على من زعم ـ يعنى ابن تيمية ـ أن أحاديث الزيارة كلها موضوعة وأن السفر إليها بدعة غير مشروعة، وهذه المقالة أظهر فساداً من أن يرد عليها العلماء، ولكنى جعلت هذا الكتاب مستقلاً فى الزيارة وما يتعلق بها مشتملاً من ذلك على جملة يعز جمعها على طالبها اهـ. وقال بعد ذلك فى كتابه المذكور : وهذا الرجل يعنى ابن تيمية قد تخيل أن الناس بزيارتهم متعرضون للإشراك بالله تعالى، وبنى كلامه كله على ذلك، وكل دليل ورد عليه يصرفه إلى غير هذا الوجه، وكل شبهة عرضت له يستعين بها على ذلك.

فهذا داء لا دواء له إلا بأن يلهمه الله الحق. ألا ترى هو ما زار قصد ذلك وأشرك مع الله غيره. انتهت عبارة شفاء السقام . ورأيت للإمام السبكى عبارة

فى هذا الشأن، وهى موجودة الآن بخط يده فى المكتبة الخالدية فى القدس الشريف، وقد أرسلت فاستكتبتها، وهذه صورتها بحروفها.

قال رحمه الله تعالى فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وقفت على كتاب "العقل والنقل" لابن تيمية وهو كتاب (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) المطبوع على هامش كتاب منهاج السنة النبوية فكلاهما لابن تيمية، فوجدت فيه مواضع أنكرتها وكتبت على بعضها حواشى فتحركت أنوف خلق له ففكرت فى انتشار أصحاب هذا الرجل، وما يخشى من انتشار بدعته وعدم من يقاومهم، فكتبت فى ليلة السبت عاشر شوال سنة إحدى وخمسين وسبعمائة رقعة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل الله فيها ذلك ، وفى آخرها إن كنت مصيباً فى اعتقادى فقونى، وإن كنت مخطئاً فاهدنى، ثم أصبحت ودفعتها للشيخ نور الدين السخاوى ليحملها فإنه عزم على الحج، وكان ذلك قبل الظهر، فلما كان الظهر جاءنى شخص فأخبرنى عن ابن تيمية بخبر يوجب شوطى فيه، وكنت سمعت عنه من شخص مسألة من نحو أربعين سنة فلم أصدقها، فلما تابعه هذا وقع فى قلبى صحة ذلك، ثم جاء آخر وآخر وآخر بمثل ذلك.

ثم نظمت قصيدة أرسلتها مع الشيخ نور الدين أيضاً، فلما أكملت نظمها فى ليلة الاثنين ثانى عشر الشهر المذكور وقع فى قلبى أن الله تعالى ما هيأ لى تلك الأخبار فى ذلك اليوم إلا هداية وجواباً عما سألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظر هذه القضية ما أعجبها وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ، وها أنا أذكر نص ما كتبته فى تلك الورقة وما نظمته إن شاء الله، والمرجو من الله إرسالهما ووصولهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم ونجحهما إن شاء الله.

أما الورقة فنص ما فيها: بسم الله الرحمن الرحيم إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يا رسول الله إنى عبد ضعيف عاجز مسكين وجميع ما حصل لى من خير الدنيا والآخرة أنت كنت سببه وأنت وسيلتى إلى الله سبحانه: وإنى نشأت على دين الإسلام سالماً عن الشبه والبدع والأهوية والأغراض والميل إلى جانب من الجوانب، لا أعرف غير أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً

رسول الله، ثم اشتغلت بالقرآن ثم بالفقه على مذهب الإمام الشافعي لا أعرف غير ذلك ولم أسمع ولم يدخل في قلبي شيء غير ذلك لا من العقائد ولا من غيرها، ثم اشتغلت بنحو وأصول فقه وفرائض، ثم بعلم الحديث ذا تصويب فيه إليك.

ثم نظرت في شيء من العلوم العقلية واشتغلت بعلم الكلام على طريقة الأشعري لأنها المشهورة في بلادنا التي رأيت عليها أهلي وقومي وبقيت أراها طريقة وسطى بين الحشو والاعتزال، ولا زلت على تلك حتى جاوزت عشرين سنة من عمري وأنا بالديار المصرية فشاع عندنا خبر ابن تيمية وما يتفق له بدمشق، وكان بها إذ ذاك علماء يقاومونه.

وفي مصر والقاهرة علماء وأكابر فأحضروه واتفق له ما اتفق بسبب العقائد؛ ثم كتبت كلامه في التوسل والاستغاثة، وتكلم معه من هو أكبر مني ورأيته واجتمعت به كثيراً ثم عاد إلى الشام، ثم بلغنا كلامه في الطلاق، وأن من علق الطلاق على قصد اليمين ثم حنث لا يقع عليه طلاق، ورددت عليه في ذلك.

ثم بلغنا كلامه في السفر إلى زيارتك ومنعه إياه ورددت عليه في ذلك، ثم توفي وله أصحاب كثيرون يشيعون رأيه وينشرون تصانيفه، وجئت إلى دمشق كما يقال نائب شريعتك، ومن لي برضاك بذلك فأنا أقل عبيدك مسكت عن الكلام في العقائد من الجانبين لأني في نفسي أن عقولنا تضعف عن إدراك سبحات الحق جل جلاله، وأرى البقاء على الفطرة السليمة والاكتفاء بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن لا ينبه العوام لشيء آخر، ومن كان عالماً ينظر بما يتيسر له، والمعصوم من عصم الله. لكن الطلاق والزيارة أنا شديد الإنكار لقول ابن تيمية فيهما ظاهراً وباطناً، والعقائد لا يعجبني ما اعتمده فيها من تحريك قلوب العوام فيها، انتهت عبارة الإمام السبكي بحروفها، وهي مكتوبة بخطه بلا نقط، وهكذا جاءتني صورتها فنقطتها، أما القصيدة التي ذكرها فغير موجودة .

ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي الذي اتفقت الأمة بأسرها حتى الوهابية التابعون مذهب ابن تيمية ، على جلالة قدره وغزارة علمه وتبحره في علم الكتاب والسنة وأنه خاتمة الحفاظ لم يأت بعده مثله . قال رحمه الله تعالى في

(فتح البارى شرح البخارى) عند قول النبى صلى الله عليه وسـلم [لا تشـد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد] بعد أن ذكر أن السبكى رد على ابـن تيميـة فى مسألة تحريمه شد الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وأقره على ذلك ما نصه وهى من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية.

ومن جملة ما استدل به على دفع ما ادعاه غيره من الإجماع على مشـروعية زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ما نقل عن مالك أنه كره أن يقـول زرت قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أجاب عنه المحققون من أصحابه بأنه كـره اللفظ أدباً، لا أصل الزيارة، فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذى الجلال وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع، والله الهادى إلى الصواب. قـال بعض المحققين قوله: إلا إلى ثلاثة مساجد المستثنى منه محذوف. فإما أن يقدر عاماً فيصير لا تشد الرحال إلى مكان فى أى أمر كان إلا إلى الثلاثة، أو أخص مـن ذلك لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلـة الرحـم وطلب العلم وغيرها فتعين الثانى . والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة ، وهو لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة ، فبطل بذلك قول من منـع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصـالحين، والله أعلـم. انتهت عبارة فتح البارى .

وقال الحافظ ابن حجر أيضاً فيما كتبه على الرد الوافر على من زعم أن مـن أطلق على ابن تيمية شيخ الإسلام كافر للحافظ ابن ناصر الدمشقى كما نقلـه الصفى البخارى فى (القول الجلى) : ولقد قام على الشيخ تقى الدين جماعـة ـــ يعنى ابن تيمية ـــ مراراً بسبب أشياء أنكروها عليه مـن الأصـول والفـروع وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة وبدمشق، ولا يحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ولا أفتى بسفك دمه مع شدة المتعصبين عليه رحمه الله تعالى مـن أهل الدولة حتى حبس بالقاهرة ثم بالإسكندرية، ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه وكثرة ورعه وزهده ووصفه بالسخاء والشجاعة وغير ذلك من قيامـه فى نصر الإسلام والدعاء إلى الله فى السر والعلانية، فكيف لا ينكر على من أطلـق عليه أنه كافر بل من أطلق على من سماه بشيخ الإسلام الكفر، وليس فى تسميته

بذلك ما يقتضي ذلك فإنه شيخ الإسلام بلا ريب، والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عناداً، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبري منه، ومع ذلك فهو بشر يخطئ ويصيب، فالذي أصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه ، أي كمسألة الزيارة والطلاق. انتهى ما أردت نقله من كلام الحافظ ابن حجر .

ومنهم السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيل نابلس ألف كتاباً مستقلاً سماه (القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي) ذكر فيه مناقبه وكلام العلماء في الثناء عليه، ذكر كاتبه في آخره أنه انتهى تأليفه سنة 1223هـ ، وقرظ عليه علماء ذلك العصر كالشيخ عبد الرحمن الكزبري الدمشقي والشيخ محمد التافلاتي المغربي مفتي القدس، وهو مطبوع على هامش كتاب (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) للسيد نعمان الآلوسي البغدادي.

قال صفي الدين في كتابه المذكور، قد نص على أنه، أي ابن تيمية، بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء ولم يتفرد بمسألة منكرة قط وإن كان قد خالف الأئمة الأربعة في مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين ، ومن أشنع ما وقع له مسألة تحريم السفر إلى زيارة القبور، وقد قال به قبله أبو عبد الله بن بطة الحنبلي في الإبانة الصغرى، ثم قال صفي الدين في موضع آخر من كتابه المذكور: فإن قلت ما نقلته في هذا الجزء يدل على براءة الشيخ مما نسب إليه : يعني من التشبيه والتجسيم فما بال علي القارئ والتقي الحصني وابن حجر الهيثمي وغيرهم ينسبونه إلى أمور فظيعة .

قلت: اعلم وفقك الله تعالى أن ابن تيمية رحمه الله تعالى كان رجلاً مشهوراً بالعلم والفضل وحفظ السنة، وكان مبالغاً في مذهب الإثبات وكان يكره التأويل أشد الكراهة، وكان يرد على الصوفية ما ذكروه في كتبهم من وحدة الوجود وما شاكلها كعادة أهل الحديث والفقهاء والمتكلمين، فرد على الشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ عمر بن الفارض وعبد الحق بن سبعين وأضرابهم، وكان قد خالف الأئمة الأربعة في بعض الفروع كمسألة الزيارة والطلاق،

وكان يناظر عليهما، فقام عليه ناس وحسدوه وأبغضوه وأشاعوا عنه ما لم يقلـه من التشبيه والتجسيم وغير ذلك، فدخل ذلك على بعض أهل العلم من الحنفية والشافعية وغيرهم ولم يطلبوا تحقيق ذلك من كتبه المشهورة واعتمـدوا علـى السماع، فوقع منهم ما قد وقع، وقد وقع مثل هذا لغير واحد من أهل العلـم والفضل، ثم قال وقد أنكروا على الشيخ أشياء لا بأس بذكر الجـواب عنـها والاعتذار فأقول : قالوا يقول بحرمة السفر إلى زيارة القبور ، وقـد خـالف فى ذلك الإجماع .

قال صفي الدين : قلت وهو مخطئ فى ذلك أشد الخطأ : ولكن لا يلزم مـن القول به التفسيق فضلا عن التكفير لأنه صدر ذلك عن شبهة ولو كان ذلـك الدليل خطأ عندنا. انتهى كلام صفى الدين البخارى، ومثله العلماء الذى أثنـوا على ابن تيمية ذكروا خطأه الفاحش فى مسائله التى خالف فيها الإجماع.

ومنهم الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعى، قال رحمه الله تعالى: وبالجملـة كان يعنى الحافظ ابن القيم كما يدل عليه سياق كلامه رحمه الله تعالى من كبـار العلماء من يخطئ ويصيب، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة فى بحر لجـى، وخطؤه أيضا مغفور له لما صح فى صحيح البخارى [إذا اجتهد الحاكم فأصـاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر].

وقال الإمام مالك ابن انس : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صـاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم، وما قاله فى غاية الحسن ، والحافظ المذكور ثقـة حجة باتفاق، وقد ترجمه الحافظ ابن حجر بترجمة جليلة جدا فلا التفات إلى مـا نقله عنه الشيخ تقى الدين الحصنى . نعم كان يقول بقول الشيخ ابن تيميـة فى مسألة الطلاق فأوذى بسببه، ومع أنه خالف الأئمة الأربعة فى ذلك فلم ينفـرد به كما هو مبين فى موضعه، وهو وإن كان خطأ فاحشا فلا يوجـب التفسـيق فالفهم. انتهت عبارة القول الجلى .

ومنهم شيخ الإسلام صالح البلقيني الشافعى . قال فى القول الجلى : وقـال شيخ الإسلام صالح ابن شيخ الإسلام عمر البلقيني رحمهما الله تعالى فيما كتبـه على كتاب (الرد الوافر): ولقد افتخر قاضى القضاة تاج الدين السبكى بـأن

الحافظ المزى لم يكتب لفظة شيخ الإسلام إلا لأبيه ، وللشيخ تقى الدين ابن تيمية وللشيخ شمس الدين أبى عمر، فلولا أن ابن تيمية فى غاية العلو فى العلم والعمل ما قرن ابن السبكى أباه معه فى هذه المنقبة التى نقلها، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً أو زنديقاً ما رضى أن يكون أبوه قريناً له.

نعم قد ينسب الشيخ تقى الدين لأشياء أنكرها عليه معارضوه وانتصب للرد عليه الشيخ تقى الدين السبكى فى مسألتى الزيارة والطلاق وأفرد كلاً منهما بتصنيف ، وليس فى ذلك ما يقتضى كفره ولا زندقته أصلاً، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر، والسعيد من عدت غلطاته وانحصرت سقطاته، ثم إن الظن بالشيخ تقى الدين أنه لم يصدر ذلك منه تهوراً وعدواناً حاش لله، بل لعله لرأى رآه وأقام عليه برهاناً، ولم نقف إلى الآن بعد التتبع والفحص على شيء من كلامه يقتضى كفره ولا زندقته . انتهى .

ومنهم الحافظ جلال الدين السيوطى الشافعى. قال الصفى البخارى فى القول الجلى بعد أن ذكر بعض من اعترضوا على ابن الفارض: وأما الذى فى اعتقادنا فابن الفارض رجل كبير عظيم المقدار وكان شيخنا الجلال السيوطى مع ذمه القول بالوحدة المطلقة يعتقد فيه ، وصنف جزءاً وسماه (قمع المعارض لابن الفارض) وذكر على هامش كتاب (جلاء العينين) المطبوع ما نصه، وهو ــ أى الجزء الذى صنفه السيوطى فى ابن الفارض ــ جزء نحو خمس ورقات ذكر فيه أهل الفنون الشرعية والعقلية وأهل المذاهب الأربعة وتكلم على كل فريق منهم بما أداه إليه نظره، فقال فى أثناء الكلام على الفقهاء الشافعية: واحذر الكبر والعجب بعلمك فيا سعادتك إن نجوت منه كفافاً لا عليك ولا لك.

فوالله ما رمقت عينى أوسع علماً ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له ابن تيمية مع الزهد فى المأكل والملبس والنساء، ومع القيام فى الحق والجهاد بكل ممكن، وقد تعبت فى رزيته وفتنته حتى مللت فى سنين متطاولة فما وجدت قد أضره فى أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا بالكبر والعجب وفرط الغرام فى رياسة المشيخة والازدراء بالكبار .

فانظر كيف وبال الدعاوى ومحبة الظهور ونسأل الله المسامحة، فقد قام عليه

ناس ليسوا بأورع منه ولا أعلم منه ولا أزهد منه ، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابها وآثام أصدقائهم وما سلطهم الله عليه بتقواهم أو جلالتهم بل بذنوبه، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون، فلا تكن فى ريب من ذلك، وقال أيضاً فى أثناء الكلام على أصول الدين : فإن برعت فى الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة، وآراء الأوائل ومجاراة العقول ، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسنة وأحوال السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك فى ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقاربها.

وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحط عليه والهجو والتضليل والتكفير بحق وبباطل ، فقد كان قبل أن يدخل فى هذه الصناعة منورا مضيئاً على محياه سيما السلف، ثم صار مظلماً مكسوفاً عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجالاً أفاكاً كافراً عند أعدائه، ومبتدعاً فاضلاً محققاً بارعاً عند طوائف من عقلاء الفضلاء، وحامل راية الإسلام، وحامى حوزة الدين، ومحيى السنة عند عموم أصحابه هو ما أقول لك ، انتهت عبارة الحافظ السيوطى. قال كاتبها صديق حسن خان البهوبالى : فأنت ترى كلامه فى الشيخ فزنه بعقلك فإنه ظاهر التناقض ، والله أعلم بالسرائر .

وقد وزنت كلام السيوطى بعقلى فلم أجد فيه تناقضاً، ولكنه حكى ما يعلمه من أحوال ابن تيمية، فمدحه تارة ، وذمة تارة أخرى بحسب أوصافه التى تقتضى المدح والذم، وليس فى ذلك شيء من التناقض ، رحمهما الله تعالى .

ومنهم الشيخ عبد الرحمن الكزبرى الدمشقى الشافعى . قال فى تقريظه على كتاب (القول الجلى) للصفى البخارى المذكور سابقاً بعد أن أثنى على ابن تيمية: وأن ما يعزى إليه من بعض المخالفات فى الأصول والابتداع هو منه برىء كما يصرح به النقل من كلامه فى مشهور مؤلفاته الدال على أنه بموافقة أهل السنة حرى، وما يعزى إليه من المخالفات فى بعض الفروع والطعن فى السادة الصوفية أولى الشأن العلى المعروف، فذلك مما لا نوافقه عليه ولا نسلم شيئاً من ذلك إليه "والله يقول الحق وهو يهدى السبيل" انتهى كلام الكزبرى، وبه يتم ما نقلته من كتاب (القول الجلى) للشيخ صفى الدين البخارى وتقاريظه.

ومنهم ملا على القارئ الحنفي . قال فى شرحه على الشفاء : وقد فرط ابـن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم كما أفـرط غيره، حيث قال: كون الزيارة قربة معلوم من الدين بالضرورة، وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعل الثانى أقرب إلى الصواب لأن تحريم ما أجمـع العلمـاء فيـه بالاستحباب يكون كفراً لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه فى هذا الباب، انتـهت عبارته .

ومنهم شهاب الدين الخفاجي الحنفي . قال رحمه الله تعالى فى شرح الشـفاء بعد قول النبي صلى الله عليه وسلم [لعن الله قومـاً اتخـذوا قبـور أنبيائـهم مساجد]: واعلم أن هذا الحديث هو الذى دعا ابن تيمية ومن تبعه كابن القيـم إلى مقالته الشنيعة التي كفروه بها، وصنف فيها السبكي مصنفاً مستقلاً، وهـى منعه من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وشد الرحال إليه وهو كما قيل :

لمهبط الوحي حقاً ترحل النجـب وعند ذاك المرجي ينتهي الطلـب

فتوهم أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها، فإنها لا تصدر عـن عاقل فضلاً عن فاضل سامحه الله تعالى، انتهت عبارة الشهاب الخفاجي.

وفسر الحديث المذكور بأن القوم الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مسـاجد : أى يسجدون إليها كما يسجدون للأوثان، وذكر رواية أخرى مصرحـة بـأولئك القوم، وهى قوله صلى الله عليه وسلم [لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبـور أنبيائهم مساجد] ، وأنت على علم من أنه لا أحد من الزائرين يسـجد لقـبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك ممنوع قطعاً بالاتفاق لهذا الحديث وغيره .

وقال أيضاً فى موضع آخر من شرح الشفاء : روى القاضي عياض بسـنده على ابن حميد أحد رواة مالك ، قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنـين مالكـاً فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفـع صوتك فى هذا المسجد فإن الله أدب قوماً، فقال ﴿لا تَرْفَعُـوا أَصْوَاتَكُـمْ﴾[1] ومدح قوماً، فقال ﴿الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ [2] وذم قوماً، فقال (إن الذيـن

(1) سورة الحجرات: الآية 2 .
(2) سورة الحجرات: الآية 2 .

ينادونك) وإن حرمته صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حياً، فاستكان لها أبو جعفر وقال : يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى يوم القيامة ، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله.

قال الشهاب الخفاجي : وفى هذا رد على ما قاله ابن تيمية من أن استقبال القبر الشريف فى الدعاء عند الزيارة أمر منكر لم يقل به أحد ولم يرو إلا فى حكاية مفتراة على الإمام مالك : يعنى هذه القصة التى أوردها المصنف القاضي عياض رحمه الله تعالى هنا.

ولله دره حيث أوردها بسند صحيح، وذكر أنه تلقاها عن عدة من ثقات مشايخه، فقوله أى ابن تيمية : إنما أمر منكر كذب محض ومجازفة من ترهاته، وقوله : لم ينقل ولم يرو باطل؛ فإن مذهب مالك وأحمد والشافعى رضي الله عنهم استحباب استقبال القبر الشريف فى السلام والدعاء، وهو مسطر فى كتبهم. انتهت عبارة الشهاب الخفاجي .

وقال أيضاً فى شرح الشفاء عند قول المصنف . وقال صلى الله عليه وسلم [لا تجعلوا قبرى عيدا] أى كالعيد باجتماع الناس عنده، وقد تقدم تأويل الحديث ، وأنه لا حجة فيه لما قاله ابن تيمية وغيره، فإن إجماع الأمة على خلافه يقتضي تفسيره بغير ما فهموه، فإنه نزعة شيطانية، انتهت عبارة الشهاب.

وقوله : وقد تقدم تأويل الحديث: أى فى آخر عبارته السابقة، فإنه قال هناك: وأما قوله صلى الله عليه وسلم [لا تتخذوا قبرى عيداً] ، فقيل كره الاجتماع عنده فى يوم معين على هيئة مخصوصة، وقيل المراد لا تزوروه فى العام مرة فقط بل أكثروا الزيارة له كما مر . وأما احتماله للنهى عنها فهو بفرض أنه المراد محمول على حالة مخصوصة : أى لا تتخذوه كالعيد فى العكوف عليه وإظهار الزينة عنده وغيره مما يجتمع له فى الأعياد ، بل لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف .

ومنهم العلامة خليل بن اسحاق المالكى الشهير . قال الإمام القسطلانى فى المواهب اللدنية: وينبغى للزائر أن يكثر الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع

والتوسل به صلى الله عليه وسلم، فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله فيه أهـ.

قال الإمام الزرقاني في شرحه بعد ما ذكر : ونحو هذا في منسك العلامة خليل، وزاد: وليتوسل به صلى الله عليه وسلم ويسأل الله تعالى بجاهه في التوسل به، إذ هو محط أحمال الأوزار وأثقال الذنوب لأن بركة شفاعته وعظمها عند ربه لا يتعاظمها ذنب، ومن اعتقد خلاف ذلك فهو المحروم الذي طمس الله بصيرته وأضل سريرته. ألم يسمع قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ (3) الآية أ هـ . ولعل مراده التعريض بابن تيمية، انتهت عبارة الإمام الزرقاني .

ومنهم الإمام محمد الزرقاني المالكي . قال رحمه الله تعالى في شرحه على المواهب اللدنية عند قول الإمام القسطلاني فيها، والحكاية المروية عنه : أي عن الإمام مالك أنه أمر المنصور أن يستقبل القبر وقت الدعاء كذب على مالك كذا قال : يعني ابن تيمية، قال الزرقاني تبرأ : أي القسطلاني منه : أي من كلام ابن تيمية في تكذيب الحكاية.

الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه (فضائل مالك) : ومن طريقة الحافظ أبو الفضل عياض في الشفاء بإسناد لا بأس به بل قيل إنه صحيح، فمن أين أنها كذب ؟ وليس في رواتها كذاب ولا وضاع ، ولكنه : يعني ابن تيمية لما ابتدع له مذهباً، وهو عدم تعظيم القبور ما كانت، وأنها إنما تزار للاعتبار والترحم، بشرط أن لا يشد إليها رحل، صار كل ما خالف ما ابتدعه بفاسد عقله عنده كالصائل لا يبالي بما يدفعه، فإذا لم يجد له شبهة واهية يدفعه بها بزعمه انتقل إلى دعوى أنه كذب على من نسب إليه مباهتة ومجازفة وقد أنصف من قال فيه : عمله أكبر من عقله أ هـ .

وقال الزرقاني أيضاً في موضع آخر من شرح المواهب عند قول القسطلاني فيها : وقد روى أن مالكاً لما سأله أبو جعفر المنصور العباسي : يا أبا عبد الله أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدعو أم استقبل القبلة وأدعو ؟ فقال له مالك ولم تصرف وجهك عنه ؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام

---

(3) سورة النساء : الآية 64 .

إلى الله عز وجل يوم القيامة .

قال الإمام القسطلاني : لكن رأيت منسوباً للشيخ تقي الدين بن تيميـــة في منسكه إن هذه الحكاية كذب على مالك ، وأن الوقوف عند القبر بدعـــة، ولم يكن أحد من الصحابة يقف عنده ويدعو لنفسه، ولكن كانوا يستقبلون القبلـــة ويدعون في مسجده صلى الله عليه وسلم. قال : يعني ابن تيمية : ومالك مـــن أعظم الأئمة كراهية لذلك، انتهت عبارة متن المواهب .

قال الزرقاني في شرحه عند قول ابن تيمية : إن هذه الحكاية كـــذب علـــى مالك: هذا تهور عجيب، فإن الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابـــه (فضائل مالك) بإسناد لا بأس به، وأخرجها القاضي عياض في الشفاء من طريقة عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه فمن أين أنها كذب ؟ وليس في إسنادها وضاع ولا كذاب. وقال عند قول ابن تيمية : إن الوقوف عند القبر بدعة ، ولم يكـــن أحد من الصحابة يقف عنده ويدعو لنفسه: نفيه مردود عليه مـــن قصـــوره أو مكابرته .

ففي الشفاء قال بعضهم : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليـــه وسلم ، فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلـــى الله عليه وسلم ثم انصرف، وقال عند قول ابن تيمية : ومالك من أعظم الأئمـــة كراهية لذلك : كذا قال ، وهو خطأ قبيح، فإن كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلاً له مستدبراً القبلة.

وممن نص إلى ذلك أبو الحسن القابسي وأبو بكر بن عبد الرحمن والعلامـــة خليل في منسكه ونقله في الشفاء عن ابن وهب عن مالك قال : إذا سلم علـــى النبي صلى الله عليه وسلم ودعا يقف وجهه إلى القـــبر لا إلى القبلـــة، ويدنـــو ويسلم، ولا يمس القبر بيده أهـ.

قال الزرقاني : وإلى هذا ذهب الشافعي والجمهور ، ونقل عن أبي حنيفة قـــال ابن الهمام: وما نقل عنه أنه يستقبل القبلة مردود بما روى عن ابن عمر : [مـــن السنة أن يستقبل القبر المكرم ويجعل ظهره للقبلة] وهو الصحيح من مذهـــب أبي حنيفة، وقول الكرماني مذهبه خلافه ليس شيء لأنه صلى الله عليه وسلم حـــي

ومن يأتي لحي إنما يتوجه إليه أ هـ .

قال الزرقاني : ولكن هذا الرجل : يعني ابن تيمية ابتدع له مذهباً، وهو عدم تعظيم القبور، وأنها إنما تزار للترحم والاعتبار ، بشرط أن لا يشد إليها رحل ، فصار كل ما خالفه عنده كالصائل لا يبالي بما يدفعه، فإذا لم يجد له شبهة واهية يدفعه بها بزعمه انتقل إلى دعوى أنه كذب على من نسب إليه مجازفة وعدم نصفة، وقد أنصف من قال فيه: علمه أكبر من عقله أ هـ .

ثم بعد عدة أوراق أعاد ذلك في المواهب : وأعاد الزرقاني الرد على ابن تيمية فقال : قوله ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك، يقال له في أي كتاب نص على كراهته، فإنه نص في رواية ابن وهب عنه، وهو من أجل أصحابه، على أنه يقف للدعاء، وأقل مراتب الطلب والاستحباب ، وجزم به الحافظ أبو الحسن القابسي، وأبو بكر بن عبد الرحمن وغيرهما من أئمة مذهب مالك، وجزم به العلامة خليل بن إسحاق في منسكه، أفما يستحيي هذا الرجل من تكذيبه بما لم يحط بعلمه ؟ وأعاد قوله السابق في التشنيع على ابن تيمية أنه صار كل ما خالف ما ابتدعه بفاسد عقله عنده كالصائل إلى آخره .

ومنهم الصلاح الصفدي الشافعي . قال في شرحه على لامية العجم عند قول الطغرائي:

ولا أهاب الصفاح البيض تسعدني   باللمح من خلل الأستار والكلل

وسألت الشيخ الإمام العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى سنة 718 بدمشق المحروسة عن قوله تعالى (وأخر متشابهات) إلى آخر ما قاله هناك من أسئلة وأجوبة لا غرض لنا في نقلها هنا، وإنما المقصود أنه اجتمع به وذاكره في العلم، ثم قال الصفدي في شرح قول الطغرائي :

ويا خبيرا على الأسرار مطلعا   أصمت ففي الصمت منجاة من الزلل

قال القاضي بهاء الدين بن شداد في أول سيرة صلاح الدين إنه يعني الشهاب السهروردي المقتول بحلب، كان حسن العقيدة كثير التعظيم لشعائر الدين، قال: وأكثر الناس على أنه ملحد لا يعتقد شيئا وأنه إنما قتله قلة عقله وكثرة كلامه. ويقال إن الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى اجتمع هو وعبد الله ابن المقفع

ليلة فتحادثا إلى الغداة فلما تفرقا قيل للخليل كيف رأيته ؟ قال رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله ، وكذا كان ابن المقفع، فإنه قتله قلة عقله وكثرة كلامه شر قتلة ومات شر ميتة. قال الصفدى بعد ما ذكر: قلت وكذا أيضاً كان الشيخ الإمام العالم العلامة تقى الدين أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى علمه متسع جداً إلى الغاية وعقله ناقص يورطه فى المهالك ويوقعه فى المضايق، انتهى كلام الصفدى .

الرد على الوهابية وابن تيمية فى اعتقاد الجهة والجسمية :

ومنهم الإمام عبد الرءوف المناوى الشافعى. قال رحمه الله تعالى فى شرح الشمايل : وقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية : إن المصطفى صلى الله عليه وسلم لما أرى ربه واضعا يديه بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة رده الشارح: يعنى ابن حجر المكى بأنه من قبيح ضلالهما، وهو مبنى على مذهبهما من إثبات الجهة والجسمية، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

قال المناوى بعد ما ذكر وأقول : أما كونهما من المبتدعة فمسلم. وأما كون هذا بخصوصه مبنيا على التجسيم فغير مستقيم، ثم استدل لرد ذلك كما رده الشيخ على القارى فى شرحه على الشمايل أيضا. وأطال فى الثناء عليهما وتبرئتهما من اعتقاد الجهة والتجسيم، وهو وإن أثنى عليهما من هذه الجهة هنا، لأنه لم يثبت عنده اعتقادهما هذا الاعتقاد الفاسد، بل ثبت عنده من مؤلفاتهما خلافه، فهو قد ذم ابن تيمية فى شرح الشفاء بالعبارة المتقدمة عنه التى ذكر فيها تفريطه بتحريم السفر لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم واستقرب كفر القائل بذلك، قائلا[4] لأن تحريم ما أجمع العلماء على استحبابه يكون كفرا.

وهذا من ملا على القارى غاية الذم لابن تيمية فلا ينفع بعده مدحه إياه فى شرح الشمايل من جهة أخرى، وإنما ذكرت عبارة المناوى هنا لأنها مصرحة بأن

---

(4) القول للشيخ على القارى ونلاحظ أنه يكفر ابن تيمية، وابن تيمية يكفر من يرى مشروعية زيارة النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل به، وهذا لا يجوز ، بل يجب على المسلمين وخاصة العلماء أن ينزهوا أنفسهم عن تكفير بعضهم بعضا لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

كون ابن القيم وابن تيمية هما من المبتدعة أمر مسلم .

ومنهم صاحبنا العالم العامل الفاضل الكامل الشيخ مصطفى بن أحمد الشطى الحنبلى الدمشقى، ألف، حفظه الله وجزاه أحسن الجزاء، رسالة مخصوصة سماها (النقول الشرعية فى الرد على الوهابية) وختمها بخاتمة فى تأييد مذهب سادتنا الصوفية وطبعها ونشرها.

فمما قاله فى المقالة الأولى منها التى تكلم فيها على الاجتهاد: لا شك أن من أدعى ذلك فى هذا الزمان عليه أمارة البهتان، كما يقع دعوى ذلك من فرقة شاذة نسبت نفسها للحنابلة من جهة نجد التى يخرج منها قرن الشيطان، كما ورد فى الحديث حتى إنهم ربما لا يستدلون بالإجماع ولا بالقياس أصلا، بل يقتصرون على الاستدلال بالكتاب والسنة بلا فهم منهم لشيء من الوجوه السابقة، أى شرائط الاجتهاد، ولا معرفة لهم بمبادئ العلوم فضلا عن مقاصدها وأصولها، ويعلمون أولادهم من إبان نشأتهم هذه الدعوى ويجرئونهم على الاحتجاجات بظواهر النصوص وترك ما وراء ذلك عن جهل ومكابرة، وقد ينكرون دعوى الاجتهاد ويحتجون بعبارة شيخ الإسلام ابن تيمية فقط مع أن الإمام المذكور قد خرج من المذهب الحنبلى فى عدة مسائل تفرد بها وتميأ بخصوصها للاجتهاد المطلق، إلا أنها لم تدون على كونها مذهبا له كما دونت فروع مسائل المذاهب الأربعة . فمنها ما كان يحب المناظرة فيه ولم يفت به لأحد، كمسألة إلغاء مفهوم العدد فى الطلاق وأنه يقع واحدة وإن كان بلفظ الثلاث والألف أو الأكثر من ذلك. ومنها تحريم شد الرحل لغير المساجد الثلاثة. ومنها منع الاستغاثة بالأنبياء والصالحين وغير ذلك مما هو مذكور فى مواضعه . فليست المسائل المذكورة من مذهب الإمام أحمد ولا ورد فيها رواية عن الإمام أحمد، ونص فقهاء الحنابلة على أنه لا يتابع فيها، فمن ادعى أنه حنبلى المذهب فليس له القول بها كما قالت بها هذه الفرقة المذكورة عن جهل وانطماس بصيرة، وفقنا الله وإياهم لاتباع سبيل المصطفى عليه الصلاة والسلام الداعى إليها على بصيرة هو ومن اتبعه. انتهت عبارة هذا العالم الحنبلى المنصف بحروفها.

وذكر في المقالة الرابعة من هـــذه الرســالة جــواز التوســل والاســتغاثة والاستشفاع بالأنبياء والأولياء والصالحين حال حياتهم وبعد مماتهم، وأقام الدليل على ذلك من الكتاب والسنة وعبارات العلماء والفقهاء ، ولا ســيما فقــهاء الحنابلة أهل مذهبه.

وذكر حفظه الله في المقالة الخامسة استحباب زيارة القبور وشد الرحل إليــها لا سيما زيارة قبره الشريف صلى الله عليه وسلم ، ونقل النقــول الصحيحــة الصريحة في ذلك عن علماء الحنابلة وكتبهم المعتمـــدة : كالمنتـــهى والإقنــاع وشرحيهما، وصرح بأن ما قاله ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في منع ذلك هـــو خلاف الصحيح من مذهب الإمام أحمد، وأتى في خاتمة الكتاب علـــى ســادتنا الصوفية رضي الله عنهم وجزاه أحسن الجزاء .

ومنهم الإمام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي المكي الشـــافعي : وهـــو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين وشفقة على المسلمين من أن يســرى إليهم شيء من غلطاته الفاحشة ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صلـــى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن نظر بعين الإنصاف شـــهد لهـــذا الإمام ابن حجر بالولاية، وإنه ربما يكون قد أطلعه الله على مـــا ســـيحصل في المستقبل[5] من الأضرار العظيمة التي ترتبت على أقوال ابن تيمية مـــن فرقتـــه الوهابية التي هو أصل اعتقادها وأساس فسادها.

ولا يخفى ما حصل منها من الأضرار العظيمة في حق المســلمين والإســلام. ولاسيما في الحرمين الشريفين وجزيرة العرب، فمن المحتمل احتمـــالا قريبـــا أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد أطلع الإمام ابن حجر على ذلك علـــى ســـبيل الكرامة وهو أهل لذلك، فإنه رضي الله عنه كان من أكابر العلمـــاء العـــاملين والأئمة الهادين المهديين، وهذا علمه وكتبه النافعة التي خدم بها الأمة المحمديـــة خدمة لم يشاركه فيها سواه من عصره إلى الآن ملأت الدنيا وانتفع بها الخـــاص والعام في جميع بلاد الإسلام، ومن كان كذلك لا يستبعد عليـــه أن يكـــون الله

(5) ليس هناك دليل شرعي على مثل هذه الأمور ، والأفضل أن تكون آراؤه اجتهادا منه وليس إطلاعـــا على الغيبيات.

تعالى قد أكرمه بإطلاعه على بعض المغيبات، ومنها ما حدث من فرقة الوهابية أتباع ابن تيمية من المضار العظيمة على الشريعة المحمدية والملة الإسلامية، ولذلك كان رضى الله عنه أشد أئمة المسلمين إنكارا لبدع ابن تيمية وردا عليه بأشد العبارات شفقة على المسلمين ومحاماة عن هذا الدين المبين ؛ وله فى ذلك عبارات كثيرة فى كتبه، ولاسيما فى الفتاوى الحديثة، ولم أر حاجة إلى نقلها هنا، فمن شاءها فليراجعها .

فقد ثبت وتحقق وظهور ظهور الشمس فى رابعة النهار أن علماء المذاهب الأربعة قد اتفقوا على رد بدعة ابن تيمية، ومنهم من طعنوا بصحة نقله كما طعنوا بكمال عقله، فضلا عن شدة تشنيعهم عليه فى خطئه الفاحش فى تلك المسائل التى شذ بها فى الدين وخالف بها إجماع المسلمين ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وممن طعن بصحة نقله من الحنفية الشهاب الخفاجى فى شرح الشفاء كما تقدم ، ومن المالكية الإمام الزرقانى فى شرح المواهب كما تقدم أيضا، ومن الشافعية الإمام السبكى كما هو مذكور فى كتابه (شفاء السقام).

فقد أوضح فيه، مع توضيح خطأ ابن تيمية فى رأيه، عدم صحة نقله أحكاما شرعية استدل بها على تقوية بدعته ونسبها إلى علماء من أئمة المذاهب الأربعة لم يقولوا بها، وذكر مثل ذلك عدم صحة نقله الإمام ابن حجر الهيثمي فى ردوده عليه، ولا يخفى أن ذلك من أقوى العيوب فى العالم وأشنع الأخلاق التى تضعف الثقة به وتسقط اعتبار نقله عن غيره، وإن كان من أحفظ الحفاظ وأعلم العلماء، ويقوى عدم اعتبار نقل ابن تيمية فى بعض ما ينقله ما قاله فى حقه الحافظ العراقى الكبير .

فهرس

المقدمة 5
الفصل الأول: شواهد الحق في الاستعانة بسيد الخلق 7
الفصل الثاني : خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام 26
الفصل الثالث: عبارات علماء المذاهب 58